نوابغ الفكر الغربي

١٨

كوندرسيه



الدكتور عاطف وصفي



دار المعارف

كوندرسيه

نوابغ الفكر الغربي

١٨

كوندرسيه

بقلم

الدكتور عاطف وصفي

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جابهت فرنسا أزمات داخلية خطيرة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تلك الأزمات الشرارة الأولى لاندلاع نيران الثورة الفرنسية ، فقد كانت فرنسا محرومة فى تلك الفترة من المساواة الاجتماعية ومن الحرية الاقتصادية ومن نظام ضرائبى عادل . إذ سيطرت امتيازات العصور الوسطى على جميع نواحى الحياة فى فرنسا . ومن أمثلة تلك الامتيازات امتيازات رجال الكنيسة وامتيازات النبلاء وامتيازات جمعيات الأقاليم . وقد ترتب على تلك الامتيازات إلقاء عبء الضرائب على كاهل الشعب الفقير وحرمان أبناء الطبقة الوسطى الممتازين من المناصب الكبرى فى الجيش والكنيسة والقضاء .

وبينما كانت تعيش الطبقات الحاكمة والإقطاعية فى بذخ وإسراف ، كان الشعب الفرنسى يتضور جوعاً ويتعرض للمجاعات من وقت لآخر .

وعندما اعتلى لويس السادس عشر عرش فرنسا عام ١٧٧٤ كانت الأزمات السابقة قد وصلت إلى الذروة ، ولم يكن الملك الجديد — الذى حرمته الطبيعة صفاء الذهن وسرعة البت فى الأمور والجد والمثابرة — الشخصية التى تستطيع التغلب على تلك الأزمات . وفور تولية لويس السادس عشر الحكم قامت أزمة مالية حادة . وفى عام ١٧٧٥ أسندت وزارة المالية إلى « ترجو » Turgot الذى كان معروفاً بأصالة الرأى ، واستطاع « ترجو » القيام ببعض إصلاحات كان من شأنها القضاء على الأزمة المالية فى مهدها ، لكن لم تكن الحاشية راضية عن « ترجو » فأخذت تكيد له عند الملك حتى عزله فى مايو ١٧٧٦ .

وفى أثناء تلك الفترة كان هناك فيلسوف كبير فى مرحلة التكوين . وذلك هو « كوندرسيه » Condorcet الذى لم يرض عن استبداد وطغيان الإقطاعيين

ولم يعجبه نظام الامتيازات ، فأخذ يكتب المقالات فى الصحف منادياً برفع الظلم وإلغاء نظام الامتيازات ، وأخذ نجمه فى الصعود عندما عُيِّن صديقه « ترجو » وزيراً للمالية ؛ فقد أسند إليه « ترجو » منصب مفتش عام المالية الفرنسية .

وبعد عزل « ترجو » عين الملك « نكر » Necker وزيراً للمالية ، ورغم خبرته فى الشئون المالية ، فقد اضطر إلى الاستدانة ، ونشر « نكر » الحسابات الحقيقية للميزانية مما كشف عن المنح والعطايا المقدمة من الملك لخدمه ورجال حاشيته ، فأخذ البلاط الملكى يقاوم الوزير الجديد حتى اضطره إلى التخلى عن منصبه . وجاء بعده الوزير « كالون » الذى كان مسرفاً مما أدى إلى مضاعفة الضائقة المالية وأصبحت أخطر مشكلة فى فرنسا إذ كانت تهدد بإفلاس الحكومة الفرنسية . وفى عام ١٧٨٨ أعلن الملك عزمه على عقد مجلس الأمة ، ليكون عوناً له فى معالجة الأزمة ، وفى مايو عام ١٧٨٩ افتُتح « مجلس الأمة » فى قصر فرساى بحضور مندوبى الأشراف والكنيسة والعامة . وكان « كوندرسيه » أحد أعضاء مجلس الأمة العاملين ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح « كوندرسيه » صحفياً أكثر منه رجل علم ، فقد اهتم بالصحافة وأخذ يكتب فى صحف كثيرة منها « المكتبة العامة للإنسان » و « فم من حديد » ، وكانت تتميز مقالات « كوندرسيه » بالعمق والحماس ، وتعتبر تلك المقالات من العوامل الرئيسية للثورة الفرنسية .

وفى سبتمبر عام ١٧٩١ تم وضع الدستور الجديد بعد اضطرابات ومذابح هائلة ، وقد نص الدستور على إلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين واستيلاء الدولة على أموال الكنيسة ، وكان من نصوص الدستور تكوين « جمعية تشريعية » مهمتها تنفيذ مواد الدستور وحماية مكاسب الثورة ، وانتخب « كوندرسيه » عضواً فى تلك الجمعية ؛ وبهذا المنصب وصل إلى أعلى الوظائف التى ارتقاها ،

وقد لعب « كوندرسيه » دوراً هامًّا فى الجمعية التشريعية ، فقد كان متمسكاً فى خطبه بالحقوق الطبيعية للشعب وأهمها الحرية والمساواة .

وعندما تكون « المؤتمر الوطنى » فى ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢ انتخبت خمس مقاطعات « كوندرسيه » عضواً فيه ، وكان يوجد فى ذلك المؤتمر حزبان كبيران متعارضان هما حزب « الجيروند » وكان يجلس أبناؤه فى الجناح الأيمن ، وكانوا يمثلون الاتجاهات المحافظة ، وحزب « اليعاقبة » وكان أتباعه من المتطرفين وكانوا يجلسون فى الجناح الأيسر ، وكان يجلس فى الوسط أتباع حزب « السهل » وكانوا يتبعون رأى الفريق الأقوى . أما عن موقف فيلسوفنا « كوندرسيه » فلم يكن يتبع أى حزب ، وكان عادلاً فى مناقشاته وآرائه لا يناصر إلا الحق ، ولا يستجيب إلا لصوت ضميره . وعندما تقدم حزب « اليعاقبة » باقتراح إعدام الملك ، قام كوندرسيه وعارض الفكرة ، وفى تلك اللحظة عرف « اليعاقبة » أن أمامهم خصماً عنيداً . ورغم معارضة كوندرسيه فقد وافق معظم أعضاء المؤتمر على إعدام الملك فى ١٧ يناير عام ١٧٩٣ ، ونفذ فيه الحكم فى ٢١ يناير بميدان الجمهورية وانتهى النظام الملكى بفرنسا .

وتقدم « كوندرسيه » – بوصفه عضواً فى لجنة الدستور – بمشروع دستور جديد رفضه « اليعاقبة » وقدموا مشروعاً آخر معارضاً لما قدمه كوندرسيه ، وأقر المؤتمر الوطنى مشروع « اليعاقبة » . وضايق هذا الموقف « كوندرسيه » فكتب احتجاجاً ينقد فيه الدستور الذى جاء به « اليعاقبة » ، ووزع الاحتجاج على أعضاء المؤتمر الوطنى ، فى تلك اللحظة وجد اليعاقبة الفرصة للتخلص من خصمهم العنيد ، فأصدروا أمراً بالقبض عليه فى ٨ يولية عام ١٧٩٣ ، وكان قد بدأ الإرهاب فى فرنسا ، واختبأ كوندرسيه عند أحد معارفه ، وفى مخبئه هذا وضع كوندرسيه أهم مؤلفاته ، وأخيراً قبض عليه ومات فى السجن .

ويقول عنه العلامة « پروير » Prior :

كان كوندرسيه آخر الفلاسفة ، فهو الفيلسوف الوحيد الذى لعب دوراً

نشيطاً فعالاً في الثورة الفرنسية ، وبعد أن كان أكبر زعماء الثورة الفرنسية وأكثر رجالها تحمساً للحرية والإخاء والمساواة أصبح شهيداً من شهدائها[1]!».

وإذا انتقلنا إلى الاتجاهات الفكرية السائدة فى عصر كوندرسيه ، نجد أن القرن الثامن عشر يتميز فى جملته بسيادة فكرة القانون ، سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وكان مونتسكييه (١٦٨٩ — ١٧٥٥ م) أول من أشار فى أوربا بأن الحياة الاجتماعية تخضع لقوانين محددة شأنها فى ذلك شأن العالم الطبيعى ، ويرى أن القوانين هى « علاقات ضرورية تشتق من طبائع الأشياء » ، وقد تأكدت تلك الفكرة على أيدى جماعة « الفيزوكرات » وهى جماعة اقتصادية ظهرت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ونادت بأن الأرض هى أهم عوامل الإنتاج الاقتصادى وبأن العالم الاقتصادى يخضع لقوانين إلهية ثابتة . ونادت أيضاً بالحرية الاقتصادية . وقد ظهر هذا الاتجاه فى إنجلترا فى القرن نفسه . فقد نادى الاقتصادى الإنجليزى آدم سمث — فى كتابه « ثروة الأمم » الذى ظهر فى إنجلترا عام ١٧٧٦ — بمبدأ القوانين العامة التى تنظم الحياة الاقتصادية ، وأهمها قوانين تقسيم العمل والعرض والطلب وحرية التجارة . ولم تقتصر فكرة وجود القوانين العامة على الظواهر الاقتصادية ، بل اتسع نطاقها حتى شملت كل مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تبلورت تلك الفكرة فى أحد فروع المعرفة الذى ازدهر فى القرن الثامن عشر وهو فلسفة التاريخ ، ويعد كوندرسيه من أهم المؤسسين لفلسفة التاريخ . وتقوم فلسفة التاريخ على مبدأين هما :

مبدأ القانون العام : بمعنى أن حياة الإنسانية بجميع جوانبها تسير وفق قانون عام يحدد مراحل تطور المجتمعات البشرية .

مبدأ التقدم : بمعنى أن الإنسانية فى تطورها وفق القانون العام تسير دائماً

---

(١) Prior, O.H. L'introduction, : Condorcet : Esquissed'un Tableau Historique des progrés de l'Esprit Humain, Bibloiteque de Pbilosopbie, Paris 1933.

نحو التقدم ، وهو تقدم قائم على أساس العلم ومحاربة الخرافات .

وهكذا نلاحظ أن كوندرسيه خير فيلسوف يمثل القرن الثامن عشر فى أوربا فإذا قلنا إن القرن الثامن عشر يتميز بالثورة الفرنسية ، نجد إن كوندرسيه هو فيلسوف الثورة الفرنسية ، وإذا قلنا أن القرن الثامن عشر يتميز بازدهار فلسفة التاريخ نجد إن كوندرسيه هو أهم فلاسفة التاريخ .

وصفوة القول أننا أمام أهم فلاسفة القرن الثامن عشر الميلادى وتتلخص أهمية كوندرسيه فيما يلى :

— هو فيلسوف الثورة الفرنسية ، الذى دعا إليها واستشهد فى سبيل مبادئها .

— آمن كوندرسيه بالمنهج العلمى القائم على أساس استخدام الملاحظة الدقيقة والوسائل الرياضية سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وقد حارب بشدة التعميمات الخاطئة والأفكار الخيالية المجردة .

— نادى بإنشاء علم جديد سماه « الرياضة الاجتماعية » وهو خاص بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق استخدام العلوم الرياضية وخاصة الإحصاء وحساب الاحتمالات . وهكذا أنار السبيل أمام العلماء من بعده حتى استطاعوا تحديد المناهج الإحصائية الدقيقة لعلم الاجتماع . ويعد كوندرسيه الأب الروحى لكل من سان سيمون وأوجست كونت .

— يعد كوندرسيه من أهم « فلاسفة التاريخ » .

— نادى كوندرسيه بنظرية جديدة فى التربية تقوم على أساس تكافؤ الفرص بين جميع أبناء الأمة . ووضع مشروعاً للتعليم العام يهدف إلى خلق المواطن الصالح ، وقد قدم هذا المشروع إلى البرلمان الفرنسى فى جلستى ٢١ و ٢٢ أبريل عام ١٧٩٢ ، وكان يحوى المشروع أفكاراً تربوية ترجع لكوندرسيه وحده .

— كان كوندرسيه متفائلاً بمستقبل الإنسانية ، فرسم صورة جميلة للتقدم الإنسانى فى المستقبل عن طريق التقدم فى العلوم المختلفة . وقد شجع هذا التفاؤل العلماء والمفكرين على السير فى طريقهم حتى وصلوا إلى عصر الازدهار العلمى العظيم الذى نعيش فيه الآن .

ـ هاجم كوندرسيه الرق وندّد بالتعصب العنصرى ودعا إلى الحرية والمساواة بين جميع البشر مهما اختلفت ألوانهم أو عقائدهم ، وأسس كوندرسيه جمعية « أصدقاء السود » التى تدعو إلى المساواة .

ـ آمن كوندرسيه برسالته فى الحياة وكان يتمتع بإرادة حديدية ، فنراه يكتب أهم مؤلفاته ـ كتابه الشهير « الملخص لتقدم العقل البشرى » ـ وهو فى مخبئه معرّض للقبض عليه وإعدامه فى أية لحظة ، ورغم أنه كتب هذا المؤلف وهو فى أسوأ حالة تصادف أى إنسان فى الوجود إلا أننا نجده كله أمل وتفاؤل بالإنسانية وبالتقدم الذى ينتظرها فى المستقبل . لقد ألف كوندرسيه كتابه هذا وهو بين أربعة جدران بعيداً عن المراجع والمكتبات . وعندما لم يجد كوندرسيه ورقاً لكتابة بحثه استخدم أغلفة الطعام وأوراق النتيجة المعلقة فى حجرته ، وإذا تصفحنا مؤلفه الشهير لا نجد كلمة واحدة تدل على الظروف السيئة التى كان يعيشها الفيلسوف وهكذا لم يسمح لظروفه الذاتية الشخصية بالتأثير على نظرياته .

ويتضح من تلك المقدمة المختصرة عن أهمية كوندرسيه ، أننا أمام أحد نوابغ الفكر الغربى الكبار ، يجب تقديمه إلى قراء العربية ، ومما يزيد من أهمية تقديمه إلى المثقفين العرب أنه درس فى مؤلفه الشهير « ملخص العقل البشرى » الدين الإسلامى والحضارة العربية وأثرهما فى النهضة الأوربية .

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول ، يعالج الفصل الأول حياة كوندرسيه ويعرض الفصل الثانى لجميع مؤلفاته ، وفى الفصل الثالث عرض وتحليل لأهم آرائه ، أما الفصل الرابع والأخير فقد اشتمل على نصوص من أقواله يصاحبها ترجمة عربية لها .

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

المؤلف

الفصل الأول

معالم حياته

اسم كوندرسيه الكامل هو : مارى جان أنتوان نيكولا كاريتات ، وبالفرنسية : .Marie Jean Antoine Nicolas Caritat ويختصر اسمه إلى المركيز دى كوندرسيه .

ولد كوندرسيه فى ١٧ سبتمبر عام ١٧٤٣ فى بلدة « ريبمونت » Ribemont بمقاطعة بيكاردى بفرنسا ، وهو ينتمى إلى أسرة نبيلة ، فقد كان والده السيد كاريتات ضابطاً فى سلاح الفرسان ، وكانت والدته مدام سانت فليكس — وهى من أصل بورجوازى — ذات ثروة وجاه ، وكانت شديدة التدين .

وبينما يقرر « پروير »[١] فى مقدمته أن والد كوندرسيه توفى فى نفس السنة التى ولد فيها ، نجد « سيفراك »[٢] يقول إن والده توفى عندما بلغ كوندرسيه الرابعة من عمره . وقد لقى كوندرسيه عناية فائقة من والدته التى كانت تلبسه ملابس الإناث إلى سن الثامنة . ويرى « كاهن »[٣] أن عناية والدته الشديدة وما اتصفت به من روح وحساسية وانفعال قد ولّدت لديه شعوراً بالخوف من النساء وجعلته يحتاج بشدة إلى الصداقة والعاطفة وجعلته متردداً سريع الانفعال لديه خوف معين من نفسه . ومن الواضح أن هذه النشأة ليست ملائمة لإعداد طالب علم .

وفى أول حياته أرسله عمه وكان قسيساً من كبار المدافعين لنظام الجزويت

---

(١) Prior : L'Introduction : Condorcet, Esquisse d'un Tableau Histo ique des progrés de l'Esprit Hum in . Paris 1933.

(٢) Severac : Condorcet, Paris 1912, P.5.

(٣) Cahen : Condorcet et La Révolution Française, Paris 1908 P.5.

إلى مدينة « ريمس » وتعلم هناك على أيدى الجزويت وهكذا لقنه الجزويت مبادئهم وفى عام ١٧٥٨ م دخل كلية نافار .

وقد ظهر نبوغه فى هذه الكلية فى أقل من عام حيث حل بنجاح مسألة رياضية تعد من أصعب المسائل ، ولا يذكر المؤرخون شيئاً بخصوص تلك الفترة من حياته ، بل إن كوندرسيه نفسه لم يشر إلى هذه الفترة إلا بمعلومات قليلة جداً ، وفى نهاية هذه الفترة من حياته كان قد امتلأ حقداً وكراهية للجزويت ولمناهجهم ، ولم يتخذ من تلك الجامعة التابعة للجزويت أى صديق ، وهذا أمر يدعو إلى الدهشة إذا تذكرنا أنه عاش بينهم فترة طويلة ، ولا شك أنه قد قاسى منهم الكثير .

وقضى هذه المدة فى التخصص فى الأسلحة ولكنه فضل بحث العلوم وبذلك عارض أسرته التى كانت ترغب فى تخصصه فى الأسلحة . واستقر بعد دراسته فى باريس ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين قدم لأكاديمية العلوم بحثاً بعنوان « الحساب التكاملى ، باريس عام ١٧٦٥ » وقد علق عليه أحد كبار علماء الرياضة « لجرانج » بأنه بحث ملىء بالأفكار العميقة الراقية ، وعن طريق هذا البحث تعرف كوندرسيه على كل من « ترجو » و « هيلفيتس » و « دالمبرت » وكان هؤلاء من كبار علماء فرنسا فى ذلك الوقت .

وفى عام ١٧٦٧ كتب مذكرة عن « مسألة الأجسام الثلاثة » ، وفى عام ١٧٦٨ صدر له « مقال فى التحليل » ، وقد ساعدته تلك الأبحاث على الاشتغال فى أكاديمية العلوم . وفى عام ١٧٧٠ ذهب كوندرسيه بصحبة « دالمبرت » لزيارة الفيلسوف الكبير « فولتير » فى بلدة « فرناى » وبعد العودة من تلك الرحلة حدث أكبر تحول فى حياة كوندرسيه العلمية إذ كف عن البحث فى العلوم الرياضية واتجه إلى العلوم الاجتماعية ، وفى عام ١٧٧٣ عين سكرتيراً احتياطياً لهذه الأكاديمية ثم عين سكرتيراً دائماً لها ، وفى عام ١٧٧٣ نشرت له تقريظات خاصة بالأكاديميين الذين توفوا فى الفترة بين عامى ١٦٦٦ و ١٦٩٠ .

وفى تلك الفترة توطدت الصداقة بينه وبين « ترجو » ، وعندما أصبح « ترجو » وزيراً للمالية عام ١٧٧٤ عين صديقه كوندرسيه مفتشاً عاماً للنقود ، وعندما عين « نكر » وزيراً للمالية خرج كوندرسيه من الوزارة لأنه لم يوافق على سياسة « نكر » الاقتصادية ، وقد هاجمه فى مقاله « أفكار عن تجارة القمح » ، ومن الأسباب الكامنة وراء مهاجمة كوندرسيه « لنكر » الخلاف الذى كان بين « نكر » و« ترجو » بخصوص المبادئ الاقتصادية .

وفى عام ١٧٧٤ كتب « رسائل من متدين إلى مؤلف القرون الثلاثة » وفى هذه الرسائل كشف كوندرسيه بعض الشىء عن شخصيته فهو مجادل متحمس ومدافع عن التسامح الدينى .

وهنا نلاحظ ظاهرة تلفت النظر : وهى تحول كوندرسيه فجأة عن البحث فى العلوم الرياضية إلى البحث فى العلوم السياسية والاجتماعية ويرجع هذا التحول بصفة رئيسية إلى أنه قد تأثر بأصدقائه ، وهؤلاء الأصدقاء هم :

(١) ترجو .

(٢) فولتير .

(٣) واضعو الموسوعة الفرنسية ومنهم ديدروت المترجم الشهير .

(٤) جماعة « الفيزوكرات » الاقتصادية .

ومن العوامل الإضافية التى جعلته يتحول إلى العلوم الإنسانية كثرة تردده على الصالونات الأدبية والاجتماعية والسياسية وأهمها صالونات الآنسة « ليسبيناس» « ومدام هيلفيتس » ، « ومدام كوندرسيه » . وقد عرف صالون مدام كوندرسيه بـ « المركز الطبيعى لأوربا المفكرة » ، وتشبع كوندرسيه فى هذا الوسط بالأفكار السياسية ، ودفعه ذلك إلى العمل بنشاط فى سبيل تحقيق الخير العام .

وفى عام ١٧٨٩ أصبح عضواً فى بلدية باريس ، ومنذ ذلك الوقت أصبح عمله أقرب إلى الصحفى منه إلى رجل العلم ، ولقد شارك وبذل مجهوداً كبيراً فى ميدان الصحافة ، فبالإضافة إلى عمله كمحرر فى جريدة « أخبار باريس »

كان يكتب فى كثير من الجرائد اليومية الأخرى منها « المكتبة العامة للإنسان » و « فم من الحديد » ، وكان يكتب فى هذه الجرائد مقالات كثيرة عن الظرف المحيطة ، ويثير المناقشة فى الحوادث اليومية . ورغم أن نشاطه كان ملحوظاً أثناء وجوده فى البرلمان فى اللجنة الدستورية فقد كان نشاطه وهو خارج البرلمان أقوى كثيراً من نشاطه وهو عضو فيه . أسس فى عام ١٧٨٩ جريدة « المجتمع » التى أيقظت فى طبقة النبلاء حب الحرية : ولقد بذل كوندرسيه كل جهوده عن طريق جريدته لتوجيه الرأى العام ، ولتسهيل الانتقال من حالة الاستبداد إلى حالة الحرية .

وفى عام ١٧٩١ انتخب عضواً فى الجمعية التشريعية ، ويعد هذا المنصب القمة فى حياته السياسية ، وكان موقف كوندرسيه فى هذه الجمعية دقيقاً وخطيراً جدًّا ، وخاصة أن الغالبية فيه كانت من حزب اليعاقبة اليسارى ، ولم ينضم كوندرسيه إلى أىّ حزب ولم يعجبه تطرف اليعاقبة ، وكتب عن نفسه فى هذه اللحظة الحاسمة من حياته فقال :

« إننى وجدت نفسى فى الجمعية التشريعية مع عدد قليل من الرجال العادلين المستنيرين والمتحمسين بلا انقطاع لحقوق الشعب » ، وبهذا التصريح حدد كوندرسيه اتجاهه السياسى وسار عليه فى ثبات وعزيمة إلى أن ضحى بحياته فى سبيله .

وقد انتخب سكرتيراً للجمعية التشريعية ، ثم نائباً للرئيس وأخيراً رئيساً ، ورغم أن كوندرسيه لم يكن خطيباً فقد كان الأعضاء ينصتون بصبر لتقريراته ، ويناقشون باحترام تصريحاته وآرائه .

ومن النتائج الطبيعية لفلسفته التحررية العمل على إزالة الامتياز الخاص بديانة الدولة ورفض خطط الغزو والفتح واحترام استقلال الشعوب الأخرى .

وفى جلستى يومى ٢١ و ٢٢ أبريل عام ١٧٩٢ تقدم للبرلمان بتقرير هام عن إصلاح التعليم فى فرنسا بحيث يصبح قائماً على أساس المساواة والديموقراطية فى المعرفة .

وعندما عقد « المؤتمر الوطنى » فى عام ١٧٩٢ كان كوندرسيه أحد أعضائه حيث انتخبته عدة مقاطعات ، ولم تجد آراؤه وفلسفته التحررية آذاناً صاغية فى ذلك المؤتمر وكان معظم أعضاء المؤتمر يعارضونه ، ورغم معارضته الشديدة للويس السادس عشر وحاشيته فقد تغلب عليه العامل الإنسانى وصوّت ضد إعدامه .

وبوصفه عضواً فى لجنة الدستور فى البرلمان قدم فى جلستى ١٥ و ١٦ فبراير عام ١٧٩٣ مشروعاً لإصلاح الدستور ، وقد رفضه اليعاقبة بشدة ، ونظراً لقوتهم فقد رفضه البرلمان ، وقدم اليعاقبة بعد ذلك بقليل مشروعاً آخر أقره البرلمان . عند ذلك كتب كوندرسيه احتجاجاً وطبعه فى صورة نشرة عامة ، ونادى فيه الشعب بالثورة ضد البرلمان .

وقد ترتب على احتجاجه آثار خطيرة إذ قدّم « شابو » — وهو من كبار اليعاقبة — للبرلمان فى يوم ٨ يوليو سنة ١٧٩٣ اقتراحاً بالقبض على كوندرسيه وذكر فيه أن كوندرسيه يعد متآمراً ضد اتحاد وتماسك الجمهورية الفرنسية ، ولقد وافق أعضاء البرلمان على هذا الاقتراح وصدر الأمر بذلك .

وهنا يبدأ القسم الثانى من حياة كوندرسيه ، حيث تبدأ معه مأساة أليمة . فعلى أثر صدور الأمر بالقبض عليه هرب كوندرسيه عند مدام « فيرنيه » فى منزلها فى شارع فوسيير بباريس ، واختبأ فى هذا المنزل وظل بين أربعة جدران مدة تسعة أشهر ، واعتبر كوندرسيه هارباً من القانون مهدداً بالمقصلة فى أية لحظة ، وفى مخبئه هذا أتم كتابه المشهور : « ملخص لتقدم العقل البشرى » . وكان هذا المنزل قريباً من ميدان « الكونكورد » ، فكان كوندرسيه يشاهد إعدام زملائه زعماء الحرية بالمقصلة فى ذلك الميدان ، ورغم ذلك لم ييأس ولم يفقد حماسته وواصل دفاعه عن الحرية والإنسانية عن طريقة تأليف كتابه الشهير .

واضطرت زوجته أن تعمل لتعول نفسها وابنتهما وخاصة بعد أن صادروا أملاك زوجها ، فرسمت بعض الصور وباعتها ، ثم أنشأت محلا لبيع النسيج ، وأخيراً ترجمت مؤلفات آدم سميث من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية .

وبعد أن انتهى كوندرسيه من كتابة « الملخص . . . » صمم على إراحة مدام « فرنيه » من مسئولية إيوائه فقرر الهرب ، وكتب وصيته التى لا تخرج عن كونها عدة نصائح لابنته . وفى صباح ٥ أبريل عام ١٧٩٤ فى الساعة العاشرة ترك حجرته وهو يلبس ثوباً تنكرياً عادياً يتكون من معطف وقبعة صوف ضخمة ؛ وهنا أشير إلى أن الأستاذ « پروير »[١] فى مقدمته عن كتاب كوندرسيه « الملخص » يذكر أن هروب كوندرسيه كان فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٤ وليس يوم ٥ أبريل سنة ١٧٩٤ كما يقول سيفيراك[١] . وقابل كوندرسيه أثناء هروبه ابن عم مدام « فرنيه » وصديق يدعى « ساريه » وحاول هذان الصديقان إقناعه بعدم الهرب لخطورة الموقف ولكنهما فشلا فى إرجاعه وسارا معه فى اتجاهه إلى مقاطعة « فونتناى أوزوس » حيث كان يأمل فى وجود مأوى عند أصدقائه القدماء — عائلة « سوارد » ، وخاصة أنه قدم لهم خدمات فى الماضى ، وبعد رحلة طويلة شاقة وصل كوندرسيه عند أصدقائه وتركه الصديقان هناك ورحلا ، ولكن كوندرسيه شعر بعد انصرافهما أن أصدقاءه لا يرغبون فى إيوائه ساعة واحدة ، فخرج وذهب إلى محاجر « مونتروج» وظل مختبئاً فيها طوال الليل ثم طوال نهار اليوم التالى ثم طوال ليل آخر ، وعند ذلك لم يستطع كوندرسيه احتمال الجوع فخرج من مخبئه فى يوم ٢٧ مارس عام ١٧٩٤ ، وذهب إلى حانوت « كلامارت » ليستريح وليشترى بعض الغذاء وطلب كوندرسيه من صاحبة الحانوت قرصاً من العجة واثنى عشر رغيفاً ، وأثار هذا العدد الشكوك حول كوندرسيه ، وزادت الشكوك عندما لاحظ الموجودون — سرعته فى التهام الغذاء واضطرابه فتقدم إليه أحد أعضاء « الجمعية الثورية » لتلك المقاطعة وطلب منه تقديم أوراقه ، وأجابه كوندرسيه : « ليس لدى أوراق » ، وعند ذلك أحضر العضو أحد رجال البوليس وقاداه إلى الجمعية الثورية ، وعندما هموا بالخروج طالبته صاحبة الحانوت بثمن الغذاء ، فأخرج كوندرسيه من جيبه محفظة نقود أنيقة

(١) Prior : l'Introduction : Condorcet, Esquisse, Paris 1933..

(٢) Severac : Condorcet, Paris 1912, P. 13

ومنديلا راقياً وقدم لها قطعة نقود ذهبية لصرفها ، وكانت تلك التصرفات من العوامل التى أكدت للحاضرين أن أمامهم صيداً ثميناً فقرروا إرساله إلى سجن « بورج لارين » ، وكان التعب قد وصل إلى أشده عند كوندرسيه ، هذا بجانب وجود جرح فى ساقه فلم يستطع المشى وأخذ يبحث دون جدوى عن عربة ، وأخيراً أخذت الشفقة عليه بأحد الفلاحين وقدم له حصانه ، ووصل كوندرسيه فى حالة سيئة إلى السجن ولم تستطع الجمعية الثورية استجوابه ومحاكمته لأن عدد الحاضرين من الأعضاء لم يكن كافياً وتقرر سجنه إلى اليوم التالى فى زنزانة ، وعندما فتحوا زنزانته فى الصباح وجدوه ميتاً .

وقد اختلفت الآراء حول السبب المباشر لموته ، فيقول « سيفراك » إن كوندرسيه قد انتحر عن طريق سم فعال كان يحمله فى خاتمه . ولكن « بروير » يعارض هذه القصة ويعتبرها أسطورة نسجها العامة حول موت الفيلسوف الكبير ، ويؤيد ما جاء فى تقرير معاون صحة السجن الذى ينص على أن كوندرسيه قد مات بسبب إحتقان الدم . وبعد ذلك أنتقل إلى جانب آخر من معالم حياة كوندرسيه وهو السمات الأساسية لشخصيته وأهم تلك السمات ما يأتى :

١ – رقة الإحساس والمروءة :

كتبت صديقته الآنسة ليسبيناس وصفاً دقيقاً لشخصيته ومن أمثلة ما كتبته أن كوندرسيه كان طيباً محبًّا للخير ، فكان يحب معاونة الآخرين والعطف عليهم ، بل كان يشقى لشقاء الآخرين ويتأثر نفسيًّا من حالات البؤس والظلم .

وهناك أدلة متعددة تثبت تلك الصفة ، منها دفاعه عن المظلومين وهجومه الشديد على الرق ونشر عيوبه ومفاسده ، وقد أسس كوندرسيه جمعيات (أصدقاء السود » ، ومنها أيضاً المناداة بالحرية والمساواة فى الحقوق والواجبات فى جميع الصحف التى كان يكتب فيها .

٢ ــ سرعة الغضب والثورة :

ولكن هذه الروح الهادئة الوديعة ، لم تكن كذلك دائماً ، فإنها تثور وتتقّد وتصبح شعلة من نار وخاصة عند الدفاع عن المظلومين والدفاع عن حرية الإنسان .

وتتضح تلك السمات فى كثير من المواقف ، فقد كان قاسياً وناقداً لاذعاً فى علاقاته مع « نكر » وزير المالية الذى خلف صديقه « ترجو » ومن أسباب تلك الكراهية معارضة « نكر » لـ « ترجو » الذى كان يعد من أقرب أصدقاء كوندرسيه ، وأيضاً لأن كوندرسيه كان يعتبر أن حرية التبادل التجارى هى الشرط الأساسى لتقدم الإنسانية وهو فى ذلك يتفق مع رأى « ترجو » والفيزوكرات ويعارض رأى « نكر » .

وُعرف « كوندرسيه » بكراهيته الشديدة لرجال الدين ، فكان يندد دائماً بهم متهماً إياهم بالتعصب وسوء الخلق والاستبداد والظلم ، ونادى بضرورة فصل الكنيسة عن الدولة ، وقد أثار موقفه هذا الشكوك حول تمسكه بالمسيحية ، وقد اعتبره الكثير من معاصريه ملحداً ، ولا يوافق على ذلك « پروير » الذى تخصص فى تحليل شخصية كوندرسيه وفى دراسة أعماله . ويرى « پروير » أن مهاجمة « كوندرسيه » لرجال الدين لا تعنى إلحاده ، إن حقيقة رأى كوندرسيه بالنسبة للدين ليست واضحة تماماً ، ويعتقد « بروير » أنه كان مسيحياً إلى آخر أيامه ، ويستدل على ذلك بموافقة كوندرسيه على حق الكنيسة فى توزيع أملاكها المصادرة وبتصريحه أن الكنيسة إذا تخلصت من رجالها الفاسدين ستصبح رسولا للمحبة والتسامح .

إننى أوافق على رأى « پروير » وأضيف إلى أدلته سابقة الذكر أن كوندرسيه عندما حدد معالم الصورة المستقبلة للإنسانية لم يرفض الدين بل أقره وجعل التسامح

---

(١) Prior : L'Introduction : Condorcet, Esquisse, Paris 1933.

هو قانون التعامل بين الأديان .

وقد صور بدقة كل من « دالمبرت » و « ترجو » الصفتين السابقتين فى شخصية كوندرسيه ، فقد وصفه « دالمبرت » بأنه بركان مغطى بالضباب ، وأطلق عليه « ترجو » اسم : الحمل الغاضب .

٣ ـ التفاؤل :

هذه الصفة غالبة جداً فى شخصيته وكان لها أكبر الأثر فى تفكيره ، ويظهر تفاؤله فى محاولاته العديدة للإصلاح وخاصة فى البرلمان عندما قدم مشروع التعليم الذى يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص ، وعندما قدم مشروع الدستور الجديد وصدر أمر القبض عليه لم يسلم نفسه بل حاول أن ينقذ نفسه ليعيش ويستمر فى خدمة وطنه . وعندما اضطر إلى الاختباء لم ييأس بل كافح بصورة جديدة وهى التأليف ، فوضع كتابه الشهير « الملخص » وفيه يرى الإنسانية تتقدم إلى الأمام وصوّر الكمال الذى ستصل إليه الإنسانية بصورة جميلة بهيجة ، ولم يتأثر فى كتاباته بحالته اليائسة وظروفه القاسية ، فكان بطلا خارج مخبئه وأكثر بطولة فى داخله .

٤ ـ الولع بالمغامرات العاطفية :

كان كوندرسيه عاطفياً مغامراً ، فقد غزا الحب قلبه عدة مرات ، فمثلا من المعروف أن الآنسة « ليسبيناس » قد استخدمت كل نفوذها وتأثيرها ومهارتها لإنهاء المغامرة العاطفية التى جمعت بين كوندرسيه والآنسة « ديسيه » .

وفى سن الثانية والأربعين وقع فى حب فتاة صغيرة عمرها ثلاثة وعشرون عاماً وهى الآنسة « دى جروش » التى تزوجها فى عام ١٧٦٦ فكانت له خير صديق .

* * *

عاصر كوندرسيه كثيراً من الفلاسفة والمفكرين الذين أثروا بوضوح فى التفكير الإنسانى ، وقد تعرف فى حياته على معظم هؤلاء وقد تأثر بهم بدرجات مختلفة ، ومن الممكن تحديد هؤلاء المفكرين الذين تأثر بهم كوندرسيه فيما يلى :

١ – مونتسكييه (١٦٨٩ – ١٧٥٥ م) Montesqiueu

هو فيلسوف فرنسى يشتهر بكتابه « روح القوانين » باريس عام ١٧٤٨ ، نادى فيه بفكرة خضوع العالم الاجتماعى للقوانين شأنه فى ذلك شأن العالم الطبيعى وفى هذا الكتاب أيضاً جمع تاريخ أنظمة الحكومات وحدد أنواعها ومبادئ كل منها وما تحويه من مزايا وعيوب ، وضمّنه نظريته الشهيرة فى وجوب انفصال سلطات الحكومة التشريعية والتنفيذية والقضائية بعضها عن بعض انفصالا تاماً لضمان الحرية والعدل واشتراك الملك مع الأرستقراطية والعامة فى حكم البلاد على مثال نظام الحكم الإنجليزى الذى كان يعتبره أرقى نظام للحكم .

ولم يتصل كوندرسيه بمونتسكيه اتصالا شخصياً ولكنه تأثر به كثيراً وخاصة بفكرة خضوع الميدان الاجتماعى للقوانين .

٢ – الفيزوكرات Physiocrates

وهم جماعة من الاقتصاديين الفرنسيين ظهروا فى القرن الثامن عشر ونادوا بمبدأ الحرية الاقتصادية ، أهم رجالها « كيناى » الذى شرح مذهب الحرية الاقتصادية فى كتابه « ملخص فى الاقتصاد » باريس عام ١٧٥٨ ، ودعا إلى قليل من سيطرة الحكومة وكثير من الحرية الاقتصادية نظراً لوجود قوانين إلهية من شأنها تنظيم الحياة الاقتصادية دون تدخل البشر ، وقد صادق كوندرسيه معظم علماء هذه المدرسة ، وقد لعبت تلك الصداقة دوراً هاماً فى تحول كوندرسيه من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية إلى دراسة العلوم الإنسانية .

٣ – ڤولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨ م) Voltaire

من كبار فلاسفة العالم ، عرف بصراحة رأيه وشجاعته فى إبداء آرائه فقد دخل البلاط الفرنسى وكشف عن الحياة الماجنة بداخله ، ولم يرض عن تلك الأوضاع وأخذ ينقد تصرفات الحكام ، ولقد قاسى ڤولتير كثيراً إزاء شجاعته هذه .

إن الاضطهادات التى ألقت به فى سجن الباستيل والتى نفته خارج وطنه ، قد ألهبت حماسه فى الأعوام العشرين الأخيرة من حياته ، فأخذ يصب جام غضبه على الظلم والطغيان فى الحكم ، وسخر قلمه لتحرير الإنسان من أنياب الاستبداد فكتب فى أصول الحرية وأنواعها ومدح المساواة والإخاء ونادى بإلغاء الامتيازت والطبقات بين الناس ، فأثارت كتاباته حماس الجماهير فى فرنسا وفى خارجها وأصبحت بلدته « فرناى » عاصمة أوربا الأدبية ينطلق منها دوى آرائه وكان من أثر ذلك قيام الثورة الفرنسية وما تبعها من ثورات ضد الطغيان فى سائر بلاد أوربا غرباً وشرقاً .

ولقد اتصل كوندرسيه بڤولتير وتعرف عليه ، وكان من أهم النتائج التى ترتبت على اتصال كوندرسيه بڤولتير ، أن غير اتجاهه فى البحث فى الرياضة إلى البحث فى الميدان الاجتماعى ولقد تأثر كوندرسيه بكثير من آراء ڤولتير .

٤ — روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨ م) Rousseau

كان للفليسوف الفرنسى الكبير جان جاك روسو أثر كبير فى قيام الثورة الفرنسية ولم يحاول تعديل نظام الحكم الاستبدادى فى فرنسا فحسب ، بل حدد واجبات الحكومات فى كل مكان ، فقد بيّن فى كتابه الشهير « العقد الاجتماعى » أن الإنسان خُلق حرًّا ومساوياً لغيره فى الحقوق ولضمان هذه الحرية والمساواة نظم الأفراد أنفسهم وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم لأنها تستمد السلطة منهم ، فإذا أساءت إحداها استعمال هذه السلطة أو أخلت بتلك الحقوق وجب عزلها وإقامة حكومة أخرى مكانها ، كان لهذا الكتاب تأثير خطير فى نفوس الفرنسيين حتى لُقب بحق « إنجيل الثورة » وذلك لما امتاز به من قوة العاطفة وسلاسة العبارة .

ولم يتصل كوندرسيه بجان جاك روسو اتصالا شخصيًّا ، ولكنه تأثر بآرائه وخصوصاً برأيه فى الحريات الطبيعية للإنسان .

٥ – ترجو (١٧٢٧ – ١٧٨١ م) Turgot

يدأ هذا الفيلسوف الفرنسى حياته بدراسة الدين ثم بحث فى فلسفة التاريخ والاقتصاد ، وكان رجلا بارزاً فى ميادين فلسفة التاريخ والإصلاح الاجتماعى والإدارة والاقتصاد ، وعرف بعدائه لرجال الكنيسة الكاثوليكية وكان ينادى بوجوب العودة إلى « مسيحية المسيح » . وفلسفة التاريخ عند « ترجو » هى أول فلسفة إبان القرن الثامن عشر فى فرنسا وضحت فيها فكرة التقدم البشرى . ومن أهم كتبه « مقال فى التاريخ العالمى » و « آراء فى تكوين الثروة وتوزيعها » .

كان كوندرسيه صديقاً حميماً لترجو ولهذا تأثر به بصورة واضحة جداً فقد كتب كوندرسيه فى فلسفة التاريخ كما فعل « ترجو »، وعندما عين ترجو وزيراً للمالية عام ١٧٧٤ اتخذ من كوندرسيه مفتشاً عاماً للمالية الفرنسية ، وقد لعبت تلك الصداقة دوراً هاماً فى تحول كوندرسيه من الميدان الطبيعى الرياضى إلى الميدان الاجتماعى الاقتصادى وكتب كوندرسيه بحثاً تأثر فيه بآراء ترجو الاقتصادية وعنوان البحث هو « آراء فى تجارة القمح » ، وأخذ أيضاً من « ترجو » فكرة التقدم ورقى الإنسانية فى تطورها .

وكان كوندرسيه معجباً بأستاذه وصديقه « ترجو » حتى قال عنه « إنه عبقرية واسعة الأفق عميقة الغور . »

٦ – أصحاب الموسوعة الفرنسية Les Encyclopaedistes

تكونت تلك الجماعة من بعض المفكرين الفرنسيين فى عام ١٧٤١ م لوضع موسوعة فى مختلف المعارف . وقد استطاع اثنان من رجالها – « ديدرو » وكان مترجماً نابهاً و « دالمبيرت » وكان رياضياً مشهوراً وعضواً فى المجمع الفرنسى – الاتفاق على ترجمة المعجم الإنجليزى الذى وضعه « إفرايم تشمبرز » والذى ظهر فى لندن عام ١٧٢٨ من الإنجليزية إلى الفرنسية . وكان غرض تلك الجماعة فى بادئ الأمر تجارياً ثم انقلب بعد ذلك إلى غرض فلسفى يرمى إلى تحديد تقدم العلوم والمعارف

الإنسانية ومبلغ الرقى الذى بلغه الفكر البشرى منذ القدم إلى زمانهما ، وجمع « دالمبيرت» حوله كبار العلماء الفرنسيين ليساهموا فى الموسوعة بأقلامهم ، فانضم إليهم « ڤولتير » « ومنتسكيه » « وروسو » ، وملئت الموسوعة بالحملات ضد الحكم الاستبدادى و بالمقالات التى تنادى بالحرية وبسيادة أحكام العقل و بمقاومة التعصب الدينى وبمحاربة رجال الدين الفاسدين ، فكانت تعبر عن روح الثورة التى سادت إبان القرن الثامن عشر والتى أرادت تحرير الإنسان وإقرار حقوقه .

لقد تأثر بهم كوندرسيه كثيراً فكان من أصدقائه « دالمبيرت » الرياضى و« ديدرو » المترجم الشهير وأخذ عن « دالمبيرت» فكرة أهمية العلوم الطبيعية والرياضية نظراً لدقة نتائجها ، وكذلك فكرة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية فى الميدان الاجتماعى .

الفصل الثانى

مؤلفات كوندرسيه

كتب كوندرسيه الكثير من الأبحاث والمذكرات والكتب ، وتجمع كل مؤلفاته روح البساطة والسهولة وبلاغة الأسلوب وذلك رغم اختلاف موضوعاتها ، ولكنها كانت تحوى أفكاراً عميقة فى نفس الوقت .

بدأ كوندرسيه بالكتابة فى الرياضة ، وفيما يلى مؤلفاته الرياضية[1] :

(١) « مقالة فى الحساب التكاملى » باريس سنة ١٧٦٧ .
"Essai sur le Calcul Intégral", Paris 1767.

(٢) « مذكرة عن مسألة الأجسام الثلاثة » باريس سنة ١٧٦٧ .
"Mémoire sur la Problème des Trois Corps," Paris 1767.

(٣) « مقالات فى التحليل » باريس سنة ١٧٦٨ .
"Essais d'Analyse", Paris 1768.

وبعد فترة قصيرة تحول كوندرسيه عن الكتابة فى الرياضة واتجه إلى العلوم الإنسانية وكان إنتاجه فى العلوم الإنسانية ، غزيراً بالنسبة لكتاباته فى الرياضة .

ومن الممكن تقسيم مؤلفات كوندرسيه غير الرياضية إلى المجموعات الآتية[2] :

المجموعة الأولى : مؤلفات كوندرسيه فى التاريخ وتراجم السير وتحتوى على :

١ ـ التقريظات : وهى تشمل تسجيل آثار كبار المفكرين والأكاديميين ومدح أعمالهم ولقد اتبع كوندرسيه فى تلك التقريظات نظام التحليل والتعليق ، فمثلا عند كلامه عن « بسكال » بدأ بعرض تاريخ حياته ثم بحث فى أفكاره ونظرياته وفحصها وحللها ونقدها . ومن الأخطاء الشائعة عند واضعى التقريظات المبالغة فى المدح ، ولكن عبقرية كوندرسيه أتاحت له تجنب الوقوع فى ذلك الخطأ فلم يتردد مطلقاً فى توجيه النقد لتحديد الخطأ والنقص إذا وجد نفسه أمام أراء تستحق ذلك .

---

(١) Severac, J.B. : Condorcet, Paris 1912, P.23

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

فى عام ١٧٧٢ كتب كوندرسيه تقريظات عن « روبرڤال » Roberval و « فرينكل » Frenicle و « ماريوت » Mariotte والأسقف « پيكار » Picard و « دوجلاس » Duglas و « بلوندل » Blondel و « پراويت » Perrauet و « هاجهينس » Hugghens و « كراس » Charas و « رومر » Roemer .

فى عام ١٧٧٣ ظهر تقريظ عن « فونتان » Fontaine

فى عام ١٧٧٤ ظهر تقريظ عن « كوندامين » Condamine

فى عام ١٧٧٦ ظهر تقريظ عن « باسكال » Pascal

فى عام ١٧٧٧ ظهرت عدة تقريظات عن : ميشيل دى او بتال Michel de l'hopital و « تريدان » Trudaine و « بورديلين » Bourdelin و « برنارد دى چيسيان » Bernard de Jussien و « هلر » Haller و « روهو » Rohaut و « بارتولين » Bartholin و « بويل » Boyle و « بلينى » Bellini و « كوپر » Cowper و « شيسلدن » Cheselden و « بيسونل » Peysonnel و « بيتكارن » Pitcarne و «فلامستيد» Flamsteed وبيانكى » Bianchi و « ميرشنبورك » Murchenbrock و « لوينهوك » Leuwenhoeck و « كيلنجسترن » Klingenstierns و « ليكات » Lecat و « بيرلاسير » Pérelasur و « بيڤيز » Bevis و « لين » Linné .

فى عام ١٧٧٨ ظهر لكوندرسيه تقريظ عن « مالون » Malouin .

وفى عام ١٧٧٩ ظهر تقريظان أحداهما عن « الكونت أركى Arci والثانى عن « جوزيف دى چيسيان » Josephe de Jussien .

وفى عام ١٧٨٠ وضع كوندرسيه ثلاثة تقريظات عن « بيكيه » Buquet و « ليتواد » Lieutand و « برتان » Bertin .

وفى عام ١٧٨١ ظهر لكوندرسيه خمسة تقريظات عن :

كورتانڤو Courtanvaux و « موريبا » Murepas و « ترونشين » Tronchin و « پرنجل » Pringle و « أنڤل » Anville .

وفي عام ١٧٨٢ ظهر ستة تقريظات أخرى عن : « بورديناف » Bordenave و« بيرنويل » Bernouillé و « مونتيجي » Montigpy و « دوهامل » Duhamel و « مارجراف » Margraf و « ڤوكانسون » Vaucanson .

في عام ١٧٨٣ كتب كوندرسيه تقريظات عن كل من :

« هانتر » Hunter و « إيلر » Euler و « دالمبيرت » D'Alembert و« بيزو » Bezout و« تريسان » Treisan و « وارجنت » Wargent .

وفي عام ١٧٨٤ نشرت التقريظات الآتية :

« ماكير »Macquer و « موراند»Morandو« بيجمان»Begmanو«كاسيني » Cassini و « ميللي » Milly و « دوق پراسلين » Praslin .

وفي عام ١٧٨٥ ظهر تقريظ واحد عن « مركيزكوريتڤرون » Courtivron .

وفي عام ١٧٨٦ظهرت ثلاثة تقريظات جديدة لكوندرسيه عن :

« جيتارد » Guettard و« الأسقف جوا » Gua و « المركيزپولمي » Poulmy

وفي عام ١٧٨٧ كتب كوندرسيه تقريظاً واحداً عن « بوڤارد » Bouvard

وفي عام ١٧٨٨ ظهرت أربعة تقريظات عن :

الكاردينال « ليني » Luynes و « فوشي » Fouchy و « بيفون » Buffon و « لاسون » Lassone .

وفي عام ١٧٨٩ ظهرت ثلاثة تقريظات عن :

« ترجو » Turgot و« فوجيرو » Fougeroux و « كامبر » Camper

وفي عام ١٧٩٠ ظهر تقريظ عن « فرانكلين » Franklin

وفي عام ١٧٩١ ظهر تقريظ عن « فوركروى » Froucroy

ويدخل في هذه المجموعة مؤلفان لكوندرسيه يغلب عليهما طابع سير التراجم وهما :

(١) « حياة ترجو » عام ١٧٨٦ "Vie de Turgot", Paris 1786

(٢) « حياة ڤولتير » عام ١٧٨٧ "Vie de Voltaire", Paris 1787

ويرى « سيفيراك »[1] أن كتاب « حياة ترجو » أقيم من كتاب « حياة ڤولتير » نظراً لغزارة المشكلات التى عالجها كوندرسيه بعمق فى كتابه عن حياة صديقه « ترجو » .

ومن الممكن أن ندخل فى المجموعة الأولى الكتابين الآتيين :

(١) « مجموعة من المذكرات عن حالة البروتستانت فى فرنسا » باريس ١٧٨١
Recueil des Pièces sur l'Etat des Protestants en France, Paris 1781

(٢) « تبرير » باريس عام ١٧٩٣ . Justification, Paris 1793.

والكتاب الثانى ناقص ، أى لم يكمله كوندرسيه إذ كتب العبارة الآتية فى آخر صفحاته :

« متروك لتأليف كتاب (الملخص عن تقدم العقل البشرى) » .

المجموعة الثانية : وهى التى تجمع مؤلفات كوندرسيه عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومعظمها مقالات وهى :

فى عام ١٧٧٥ ظهرت مؤلفات كوندرسيه : « أفكار عن السخرة » Réflexions sur les Corvées و« الاحتكار والمحتكر » Monopole et Monopolur

و« رسالة من عامل فى بيكاردى » Lettre d'un Laboureur de Picardie

و« أفكار عن الفقه الإجرامى » Réflexions sur la Jurisprudence Criminelle

وفى عام ١٧٧٦ ظهرت لكوندرسيه هذه المقالات :

« حرية الصحافة » Sur la Liberté de la Presse

« أفكار عن تجارة القمح » Réflexions sur la Commerce des Blés

« آراء فى القضاء على السخرة » Réflexions sur l'abolition des corvées

وفى عام ١٧٨١ ظهر له مؤلف بعنوان « أفكار عن رق الزنوج » .

---

(١) Severac : Condorcet, Paris 1912, P. 23.

ومن نهاية عام ١٧٨٦ إلى عام ١٧٩٤ ظهر لكوندرسيه عدد كبير من المقالات والتقريرات والمشروعات والمذكرات والبيانات والأبحاث ذات موضوعات متنوعة وهى تدل على نشاط غير عادى للمؤلف وتلك المؤلفات هى :

عام ١٧٨٨ « مقالة عن دستور مجالس المقاطعات »

Essai sur la Constitution des Assemblées Provinciales, Paris 1788.

عام ١٧٨٩ « رسائل رجل مهذب » Lettres d'un Gentilhomme.

و « أفكار عن السلطات والتعليمات التى تصدرها المقاطعات لنوابها فى الحالات العامة»

Réflexions sur les Pouvoirs et Instructions à donner par les Provinces à Leurs Députés aux Etats Généraux.

وفى عام ١٧٩٠ صدرت له مذكرات كثيرة عن تحديد الضرائب والنقود .

وفى عام ١٧٩١ ظهر له «إعلان مجلس الأمة »

Déclaration de l'Assemblée Nationale

وخمس «مذكرات عن التعليم العام» Mémoires surl' Instruction Publique

وفى عام ١٧٩٢ صدر له « تقرير ومشروع لفتوى خاصة بالتنظيم الأساسى للتعليم العام »

Rapport et Projet de Décret sur l'Organisation Générale de l'Instruction Publique.

وأيضًا « أفكار عن الثورة عام ١٦٨٨ وثورة أغسطس عام ١٧٩٢ ».

Réflexions sur la Révolution de 1688 et sur Celle du 10 Août 1792.

وأيضًا « تعليمات عن ممارسة حق السيادة »

Instruction sur l'Exercise du Droit Souverainètè.

و « رأى فى حكم لويس السادس عشر »

Opinion sur la Jugement de Louis XVI.

وفى عام ١٧٩٣ صدر له « مشروع لدستور مقدم للمؤتمر الوطنى »

Plan de Constitution Présenté à La Convention Nationale.

« رسائل عن الضرائب » Dissertations sur les Impôts

ومقال عن « معنى كلمة ثورى » Sur le Sens du Mot Révolutionnaire

وفى عام ١٧٩١ – ١٧٩٢ كتب « الصديق الحقيقى والصديق المزيف للشعب »
Le Véritable et le Faux ami du Peuple.

المجموعة الثالثة : وتشمل المؤلفات الفلسفية وتختلف عن المجموعتين السابقتين فى قلة عدد المؤلفات الداخلة فيها ، ونقصد بمصطلح « فلسفة » ذلك المعنى الواسع المستخدم فى القرن الثامن عشر الميلادى والذى كان يحتوى على الدراسات العميقة فى أى فرع من فروع المعرفة . وهذه المؤلفات هى :

(١) « ملاحظات عن أفكار باسكال » باريس سنة ١٧٧٦ .
Remarques sur les Pensées de Pascal.

(٢) « أحاديث عن القبول فى الأكاديمية الفرنسية » باريس سنة ١٧٨٢.
Discours de Réception à l'Academie Française

(٣) « أحاديث عن الرياضيات » باريس سنة ١٧٨٦ .
Discours sur les Mathématiques.

(٤) « الفلك وحساب الاحتمالات » باريس سنة ١٧٨٧ .
Astronomie et le Calcul des Probabilités.

(٥) « رسالة فلسفية وسياسية ، أو أفكار عن هذا السؤال : هل من المفيد للناس أن يخدعوا » باريس ١٧٩٠.
Dissertation Philosophique et Politique ou Réflexions sur cette Question : S' il est utile aux Hommes d'être trompés.

(٦) « صورة عامة عن العلم الذى طبق الحساب فى ميدان العلوم الأخلاقية والسياسية » باريس عام ١٧٩٣.
Tableau Général de la Science Qui a Pour Objet l'application du calcul aux Sciences Morales et Politiques.

(٧) « ملخص للصورة التاريخية لتقدم العقل الإنسانى » باريس من عام ١٧٩٣ إلى عام ١٧٩٤ .
Esquisse d'Un Tableau Historique des Progrés de l'Esprit Humain.

هذه هى أهم المؤلفات الفلسفية لكوندرسيه ويرى « سيفراك » الذى تخصص فى دراسة كوندرسيه أنه لإكمال العرض السريع لمؤلفات كوندرسيه ، يجب أن نشير إلى تلك المؤلفات :

(١) رسالة عن سويدنبرج إلى ؟
lettre sur Svédenborg à M.......................

(٢) رسائل كوندرسيه إلى « ترجو» و « ڤولتير » وغيرهما .
Sa Correspondence

(٣) « رسائل من رجل متدين إلى مؤلف قاموس» .
Lettres d'un Théologien à l'auteur d'un Dictionnaire.

(٤) « نصائحه إلى ابنته » Ses Conseils

(٥) قصيدة عنوانها : « رسالة لبولندى » Epitre d'un Polonais.

(٦) «وصيته» Son Testament

نشرت مؤلفات كوندرسيه كاملة فى باريس عام ١٨٠٤ وقد قسمت إلى ٢١ جزءاً.

وبعد هذا العرض الموجز لمؤلفات كوندرسيه أنتقل إلى عرض أهم مؤلفاته بشيء من التفصيل ، ويعد كتابه «ملخص لصورة تاريخية لتقدم العقل البشرى» أهم مؤلفاته على الإطلاق وترجع تلك الأهمية لما يأتى :

١ — يعبر هذا الكتاب عن الجانب الأصيل فى أفكار كوندرسيه إذ لاتتعدى مؤلفاته الأخرى عن كونها سيراً للعلماء ومقالات سياسية واقتصادية وبعض التحليلات الرياضية .

٢ — إن الظروف القاسية التى صاحبت هذا الكتاب أضفت عليه أهمية كبرى ، فقد ألفه كوندرسيه وهو مختبئ بين أربعة جدران ، بعيد عن المراجع والمكتبات ومعرض للمقصلة فى أية لحظة .

أما عن العنوان الفرنسى للكتاب فهو :
Esquisse d'un Tableau Historique des Progrés de l'Esprit Humain.

ألف كوندرسيه هذا الكتاب وهو فى مخبئه عند مدام فيرنيه بشارع « فوسيير بباريس » ، وكان عنوان النسخة الأصلية ، المكتوبة بخط يده : بيانات عن صورة تاريخية » Prospectus d'un Tableau Historique ولقد ذيل كوندرسيه تلك النسخة الأصلية بالعبارة الآتية :

« فى يوم الجمعة ٤ أكتوبر عام ١٧٩٣ ، وبالنظام القديم ، ١٣ من الشهر الأول للسنة الثانية للجمهورية الفرنسية » .

ونفهم من هذا أنه انتهى من كتابه قبل هربه من هذا المنزل بحوالى ستة شهور لأنه هرب فى يوم ٢٥ مارس عام ١٧٩٤ ونفهم من ذلك أيضاً أنه كتبه فى مدة أربعة أشهر تقريباً ، لأنه وصل إلى منزل مدام فيرنيه فى ٨ يوليو سنة ١٧٩٣ ، وهى مدة وجيزة تدل على أنه ألف كتابه هذا بسرعة . وتتكون النسخة الأصلية من أوراق لها صفحتان ، كل صفحة مقسمة إلى عمودين أو قسمين ، وكان يكتب على اليمين أما على اليسار فكان يحدد التصحيحات ويضيف الزيادات التى يراها .

ظهرت الطبعة الثالثة والأخيرة لكتاب كوندرسيه فى عام ١٩٣٣ بباريس تبع « مكتبة الفلاسفة الكبار » وقد راجع هذه الطبعة وقدم لها الباحث « پروير » O.H. Prior الأستاذ فى جامعة كامبردج .

يرى « پروير » فى مقدمته أن كوندرسيه كان يعتبر هذا الكتاب كمقدمة بسيطة لدائرة معارف ضخمة ، ويستدل على هذه الفكرة بأن كوندرسيه عنون كتابه باسم « بيانات لصور تاريخية » أى بيانات تمهيدية لصورة تاريخية .

وقد لاحظت دليلاً آخر يثبت فكرة الأستاذ « پروير » وهو أن من يطلع على كتاب كوندرسيه يلاحظ تكرار هذه العبارات :

« إننا سنبين كيف أن » « إننا سنشرح » « إننا سنثبت أن » وينتقل إلى أفكار أخرى دون أن يبين أو يثبت شيئاً وكأنه يقصد من استعماله فعل المستقبل أنه سيعالج هذه الأمور فى كتاب آخر لاحق يعتمد فيه على المراجع والمصادر التاريخية ، وهكذا كان يأمل فى إلغاء أمر القبض عليه ، وهذا أمر غير مستبعد إذا تذكرنا صفة التفاؤل التى تميز شخصيته .

وضع كوندرسيه كتابه هذا وهو فى حالة بائسة ، فبعد أن كافح كفاحاً مريراً لتحقيق إصلاح شامل وثورة قوية ، وجد نفسه من أوائل ضحايا تلك الثورة وهى الثورة ذاتها التى شارك فى خلقها .

ونظراً لعدم وجود الأوراق اللازمة للكتابة كان كوندرسيه يستخدم أى ورقة تقع فى يده ، ولهذا نجده أحياناً يكتب خلف أوراق الإعلانات وأحياناً يستعمل أوراقاً غير مهذبة الأطراف ، وكانت أخطاء الإملاء والقواعد والنحو كثيرة جداً بسبب السرعة ، وكانت التصحيحات الواردة فى العمود اليسارى من كل صفحة كثيرة ومعقدة .

ويرى الاستاذ « كاهن »[١] أنه من المؤكد أن كوندرسيه كانت لديه أسس كتابه هذا قبل هربه واختفائه عند مدام « فيرنيه » ، وهذا لقصر المدة التى ألف فيها كتابه .

وضع كوندرسيه خطة مفصلة جداً قبل البدء فى الكتابة ، هذه الخطة مرفقة مع النسخة الأصلية وكذلك وضع فهرساً لتقسيم الكتاب سار عليه إلى النهاية .

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى العام الثالث من إعلان الجمهورية الفرنسية ولكنها تختلف كثيراً عن النسخة الخطية لكوندرسيه ، وكان الاختلاف فى التصحيحات وفى الإضافات التى وضعها كوندرسيه ، ثم ظهرت الطبعة الثانية فى عام ١٨٤٧ وهى طبعة « أراجو » ويرى الأستاذ « پروير » [٢] أن هذه الطبعة أيضاً تختلف فى كثير من العبارات عن النسخة الخطية ، هذا رغم أن « أراجو » يعلن أنه راجعها على النسخة الأصلية الخطية ويوافق « كاهن » على رأى « پروير » الخاص بذلك ويؤكد عدم دقة طبعة « أراجو » . وبسبب الإختلافات والأخطاء الموجودة فى الطبعتين السابقتين أعاد « پروير » طبع الكتاب وجعله مطابقاً تماماً للنسخه الخطية ، أما العبارات التى وجدت فى طبعة « أراجو » ولم توجد فى النسخة الخطية الأصلية فقد وضعها « پروير » بين أقواس . ولذلك فإننى عند تسجيل آراء كوندرسيه لم أهتم بالعبارات التى بين الأقواس إذ يظهر لمن يقرأها أنها شروح كتبها « أراجو » لتوضيح آراء كوندرسيه . ورغم حالة كوندرسيه البائسة ، فقد وضع فى كتابه هذا أفكاره ونظرياته دون أن يسمح لظروفه الشخصية السيطرة على أفكاره وتحليلاته ؛ فقد نظر

---

(١) Cahen : Condorcet et la Révolution Francaise, P. 28

(٢) Prior : l'Introduction Condorcet; Esquisse, Paris 1933.

إلى الأمور نظرة موضوعية ، وأكبر دليل على ذلك أنه كان متفائلاً أشد التفاؤل بتقدم العقل الإنسانى وبالدور الذى سيؤديه فى المستقبل لخدمة الإنسانية ولم يشر مرة واحدة إلى ظروفه القاسية وحالته النفسية المضطربة وهكذا اتبع فى ذلك المنهج العلمى الذى يتميز بالموضوعية.

كتب كوندرسيه مؤلفه هذا فى أسلوب بسيط ولم يستعمل الاستعارات والتفخيمات ، وفى كل سطر كتبه تظهر فيه عاطفته المتحمسة للروح العلمية ولنبوغ العقل البشرى .

ويرى الاستاذ « إلوود »(١) أن كوندرسيه فى هذا الكتاب تابع مفكرى الثورة الفرنسية فى تقديسهم للإنسانية نظراً لقدرة العقل على الاختراع والإبداع مما يدفع الإنسان إلى الأمام دائماً وأيضاً يشاركهم فى محاربة رجال الدين.

ويبين هذا الكتاب تقدم العقل الإنسانى كما هو واضح من عنوانه وفيه تحليل دقيق للمراحل التى تبين وتحدد التقدم الذى يحرزه العقل فى جميع الميادين .

يتبين لنا من العرض السابق أن « كوندرسيه» لم يكن بالشخص العادى نظراً لغزارة مؤلفاته مع تعدد موضوعاتها ونظراً لحياته الحافلة ، ولقد وافق الأستاذ « پروير» على قول الأديبة الفرنسية «ليسبيناس» «بأن الطبيعة لم تنتج رجلا مثل كوندرسيه » ، ويضيف پروير» أستاذ جامعة كامبردج الذى تخصص فى دراسة كوندرسيه العبارة الآتية :

« إن من يتهم تقريظ الآنسة «ليسبيناس » بالمبالغة عليه أن يطلع على مؤلفات هذا العبقرى (كوندرسيه) وعندئذ سينصف الآنسة«ليسبيناس » ويتفق معها فى الرأى » .(٢) وتتميز مؤلفات كوندرسيه بتنوع الموضوعات ، ومن حيث الأسلوب تجمع بين سهولة « ڤولتير » وتعقيد «فونتنيل» وكذلك بين وضوح « بسكال » وعمق «نيوتن »(٣) .

---

(١) Ellwood : A History of Social Philosophy, New York 1944, P. 219.

(٢) Prior : L'Introduction : Condorcet; Esquisse, Paris 1933.

(٣) المرجع السابق .

الفصل الثالث

أفكاره ونظرياته

من الممكن تقسيم نظريات «كوندرسيه» حسب موضوعاتها إلى ستة أقسام : نظرية المعرفة ، المساواة والحرية ، نظريته فى التعليم العام ، نظرية التقدم ، آراؤه فى مستقبل الإنسانية ، تحليلاته للحضارة العربية ومدى تأثيرها فى النهضة الأوربية ، وأخيراً نظرياته فى فلسفة التاريخ . وتعد نظرياته الخاصة بفلسفة التاريخ أهم آرائه نظراً لأصالتها . وفيما يلى عرض لتلك النظريات والأفكار مع التعليق على بعضها .

١ ـ نظرية المعرفة :

يرى «كوندرسيه» أن الإنسان خلق مزوداً باستعداد فطرى يمكنه من تلقى الإحساسات والشعور بها عن طريق الحواس، ويقسم تلك الإحساسات إلى نوعين إحساسات بسيطة وأخرى مركبة ، ويتميز ذلك الاستعداد بقابليته للنمو والترقى وينمو ذلك الاستعداد وتزداد دقته عن طريق عوامل متعددة أهمها :

(ا) الأشياء الخارجية التى يلاحظها الإنسان، فكلما كثرت ملاحظات الإنسان للواقع الخارجى نمى وارتقى ذلك الاستعداد .

(ب) اتصال الإنسان بأخيه الإنسان ، فعن طريق احتكاك العقول بعضها ببعض تقوى قدرة الإنسان على فهم الواقع الخارجى الذى حوله، وبالتالى تتكون إحساسات مركبة جديدة .

(حـ) عن طريق وسائل صناعية توصل إليها بعد أن قطع شوطاً فى مراحل التقدم ، ومن أمثلة تلك الوسائل القراءة والكتابة والآلات وكل الاختراعات الإنسانية التى من شأنها زيادة معرفة الإنسان بما حوله .

وعندما يتجمع لدى الإنسان عدد كبير من الإحساسات سواء أكانت بسيطة

أم مركبة ، فإنه يستطيع عن طريق استعداد فطرى خاص ربط تلك الإحساسات بعضها ببعض فى صورة مجموعات متماسكة.

ويتمتع الإنسان باستعداد ثالث يمكنه من تحويل الإحساسات المؤقتة إلى مشاعر دائمة ويعرف هذا الاستعداد «بالذاكرة»، وعن طريق تلك الاستعدادات وخاصة الاستعدادين الأخيرين يستطيع الإنسان الإبداع والاختراع .

وتنمو تلك الاستعدادات على مرور الزمن وتسير فى نموها فى طريق التقدم والكمال ، وما هذا النمو إلا خطوات تقدمية ، وإذا درسنا تقدم تلك الاستعدادات فى كل المجتمعات الإنسانية وفى كل العصور يكون بحثنا خاصاً بميدان الميتافيزيقا ، وإذا بحثنا ذلك التقدم بالنسبة لكل شعب وبتحديد زمن معين يكون بحثنا هذا رسماً لتقدم العقل الإنسانى . ويجب أن نعلم أن ذلك التقدم للعقل الإنسانى لابد أن يسير فى الإطار العام الذى تحدده الدراسات الميتافيزيقية الخاصة بدراسة التقدم الإنسانى عامة دون التقيد بالمكان والزمان . وهكذا نصل عن طريق الميتافيزيقا إلى تحديد المبادئ العامة لتغير المجتمعات ولتقدمها .

وصفوة القول أن المعرفة عند كوندرسيه ترجع إلى الحواس ، وتبدأ بإحساسات بسيطة ثم تتجمع فى صورة إحساسات مركبة وعن طريق تلك الإحساسات المركبة تتكون معرفتنا ، وهكذا إذا حللنا أى نوع من المعرفة الإنسانية مهما كانت درجة تجريدها نراه يرجع فى الأصل إلى إحساسات بسيطة .

وقد تأثر كوندرسيه بالفيلسوف الإنجليزى جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤ م) فى ميدان المعرفة. فنظرية لوك فى المعرفة أساسها الحواس وقد ألغى المبادئ العقلية الفطرية ، وقد قسم لوك الأفكار إلى بسيطة ومركبة ومصدر كليهما الحواس ومما يؤكد تأثر كوندرسيه بجون لوك أن كوندرسيه يشيد بنظرية لوك فى المعرفة[١] ، وعندما يتعرض كوندرسيه لنظرية ديكارت فى المعرفة — تلك النظرية التى تقف

---

(١) Condorcet : Esquisse P. 156

على طرف نقيض مع نظرية لوك — يتخذ موقفاً معارضاً ويكثر من الهجوم عليها[1] . ويجدر بنا أن نشير إلى أن أساس نظرية ديكارت فى المعرفة هو المبادئ العقلية الفطرية التى بدونها لا يكون للإحساسات أى معنى .

٢ — نظريته فى الحرية والمساواة :

يرى كوندرسيه أن الحرية هى حق طبيعى للإنسان ، ويؤكد أنها أغلى حق طبيعى ، ويقصد بالحرية حرية التفكير ، ويجب على التفكير الإنسانى أن يكون تابعاً للعقل فقط ولا يخضع لأية سلطة أخرى ، ولذلك ينادى كوندرسيه بضرورة تخليص التفكير الإنسانى من سيطرة كلٍّ من رجال الدين والخرافة والأفكار المسلم بها سابقاً واستبداد الحكام . وقد نادى كوندرسيه بالحرية فى كل مجتمع وليس فى فرنسا فقط وقدم كوندرسيه مشروعاً لدستور فرنسى جديد يقيد سلطة الهيئة الحاكمة ويحمى الشعب من طغيان الحكام . وقد رُفض هذا الاقتراح نظراً لسيطرة حزب اليعاقبة على المؤتمر الوطنى ، وكان رجال ذلك الحزب يكرهون كوندرسيه الذى رفض أن يكون تابعاً لهم . وكانت مقالات كوندرسيه فى الصحف تدور حول ضرورة تحقيق حرية الشعب والقضاء على استبداد الحكام . وعند كلامه عن الصورة المستقبلة للإنسانية نراه يؤكد حصول جميع الشعوب على حريتها وقد هاجم الاستعمار الأوربى لأفريقيا وآسيا والأمريكتين ، وقد تنبأ بانهيار الاستعمار واختفائه وحصول كل الشعوب على حريتها واستقلالها ، ويجب أن لا ننسى أن كوندرسيه نادى بضرورة القضاء على الاستعمار ، وقد عاش فى القرن الثامن عشر الذى كان فيه الاستعمار يعتبر واجباً مقدساً للشعوب البيضاء على أساس الدعوى الباطلة القائلة بأن الاستعمار يعمل على تهذيب ونشر التعليم بين الشعوب المتخلفة . لقد نادى كوندرسيه بالقضاء على الاستعمار

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ .

وهو ينتمى إلى فرنسا التى كانت تستعمر فى ذلك الوقت مناطق شاسعة فى أفريقيا وآسيا .

ورغم تلك الاعتبارات فقد نادى كوندرسيه برأيه بصراحة وتنبأ بانهيار الاستعمار فى المستقبل القريب .

وقد نادى كوندرسيه أيضاً بتحقيق المساواة بين الجميع فى الحقوق . الطبيعية ، ويرى أن المساواة المنشودة هى المساواة فى الملكية ، والمستوى الاجتماعى والتعليم والحقوق السياسية .

وقد نادى بالمساواة فى الحقوق بين الرجال والنساء وخاصة بالنسبة للحقوق السياسية .

٣ ـ نظريته فى التعليم العام :

وضع نظاماً للتعليم العام على أساس المبدأ الديموقراطى القائل بتكافؤ الفرص ، ويتيح هذا النظام التعليم الأولى أو الابتدائى للجميع بالمجان ، وهكذا يستطيع كل من الفقير والغنى أن يحصل على المبادئ الأساسية للمعرفة ، أما التعليم العالى فليس مباحاً للجميع ولكنه قاصر على الطلبة الممتازين وليس على الطلبة الأغنياء ، وبالتالى يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص فى التعليم العالى أيضاً ، وذلك لأن مجموع الدرجات هو العامل الحاسم الذى يقرر دخول الطالب فى مرحلة التعليم العالى .

وقد نادى كوندرسيه بضرورة عدم خضوع التعليم لأى سيطرة دخيلة ، وبالتالى يجب فصل التعليم عن الحكومة والدين حتى نضمن حماية التعليم من أهواء الحكام وتدخل رجال الدين . ولذلك يجب أن تدرس العلوم الموضوعية فى المدارس ، أما الدين فيعلم فى المعابد وليس فى المدارس . وقد نادى كوندرسيه بحرية العقيدة والتسامح بين جميع الأديان .

وقد جعل دور التعليم الابتدائى هو تمكين المواطن من فهم دقيق للحقوق

والواجبات ، أى خلق المواطن الصالح عقلا وروحاً . وهكذا اهتم كوندرسيه ببرامج التربية القومية فى مرحلة التعليم الابتدائى . أما دور التعليم العالى فهو توفير المتخصصين والفنيين فى العلوم والآداب .

٤ ـ نظرية التقدم :

إن التقدم أمر حتمى للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها ، وأساس تقدم الإنسانية هو تقدم العقل البشرى ، فعن طريق تقدم القوى العقلية تتقدم الجوانب الإنسانية المادية والاجتماعية . ولا يخرج التقدم العقلى عن كونه تقدم الاستعدادات الفطرية فى الإنسان ، وهكذا يخضع كوندرسيه الحياة الاجتماعية لفكرة التقدم القائمة على أساس وجود ميل فطرى يدفع الإنسان إلى تنمية قواه الفكرية إلى أكبر حد ممكن .

ويرى كوندرسيه أن دراسة التقدم الإنسانى فى جميع الشعوب بصورة عامة تعد من ميادين الميتافيزيقا ، أما إذا درسنا ظاهرة التقدم بالنسبة لكل مجتمع على حدة ؛ فإن بحثنا يكون دراسة للخطوط التفصيلية التى يسير فيها تقدم العقل الإنسانى . ولكن تلك الخطوط التفصيلية تسير فى إطار عام تحدده الميتافيزيقا التى تدرس التقدم العقلى بصورة عامة .

ويرى أن دراستنا للتقدم الذى تم فى العصور القديمة والسابقة والذى يحدث فى عصرنا تساعدنا فى معرفة التقدم الذى سيحدث فى المستقبل .

وتدفع الطبيعة الإنسان إلى الكمال ولا يمكن لأى قوة أن تقف فى سبيله بصورة دائمة إذ قد تعترض تقدم الإنسانية بعض العقبات التى تعرقل التقدم لفترة معينة . إن هذا التقدم الحتمى للعقل الإنسانى يسير خطوات قد تكون سريعة وقد تكون بطيئة ولكنها لا تتوقف أبداً ، ولا يمكن أن تحدث خطوات إلى الوراء .

ويحدد أهم العقبات التى تلعب دوراً هاماً فى عرقلة تقدم الإنسانية وهى

المعتقدات المسلم بها سابقاً دون برهنة على صحتها وتعد الخرافات أوضح مثل لتلك المعتقدات .

٥ ــ تحليلاته للنهضة العربية والدين الإسلامى :

تعرض كوندرسيه للديانة الإسلامية وللنهضة العربية إبان العصور الوسطى وبدأ كلامه بالتعريف بالعرب بأنهم كانوا فى الأصل قبائل متعددة تسكن حدود آسيا وأفريقيا ، ولم يكن يربط تلك القبائل أية رابطة سياسية ولكنها كانت متحدة فى الأصل واللغة والعادات ، وعرفت تلك القبائل بالشجاعة ولذلك استطاعت الوقوف أمام هجمات الفرس والإسكندر والرومان . وقد ظهر بين تلك القبائل رجل وحد صفوفهم وخلق منهم أمة كبيرة متماسكة وقد عودهم على قبول فكرة الرئيس العام ، وقام بالتبشير لدين قوى أكثر نقاء وطهارة مما وجد قبل ذلك ، كان هذا الرجل مشرعاً ونبياً ، وقاضياً وإماماً وقائداً للجيش .

ولقد استخدم هذا النبى كل الوسائل التى تخضع الرجال وعرف كيف يستعملها بخبرة ولكن فى عظمة وهيبة . ويذكر كوندرسيه قصة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مؤداها أنه وهو فى أوج قوته طلب من الناس أن ينقدوا أعماله وأنه إذا كان قد اقترف خطيئة فهو مستعد أن يصلحها . وقد صمت الجميع أمام النبي إلا امرأة واحدة تقدمت إليه وطلبت منه مبلغاً صغيراً من المال .

وقد لعب الدين الجديد دوراً فعالاً فى تطوير وتهذيب أخلاق وعادات العرب فأصبحت رقيقة وهادئة .

وينتقل إلى الكلام عن آثارهم الفكرية ، فيقول إن العرب قد درسوا أرسطو وترجموا كتبه ووضعوا أسس علم الفلك وعلم البصريات والطب ، ولقد زودوا تلك العلوم ببعض الحقائق الرئيسية ، ويرجع إليهم تعميم استعمال الجبر بعد أن كان عند اليونان قاصراً على نوع واحد من التمرينات . واخترع العرب الكيمياء وعرفوها بأنها علم تحليل الجسم المركب إلى عناصره البسيطة ، وتهتم أيضاً بتحديد صور ترابط تلك العناصر والقوانين التى تخضع لها .

وقد ازدهرت تلك العلوم عندما تمتع العرب بالحرية ولكنها انهارت عندما ساد استبداد رجال الدين ، ولم تدم تلك الحرية إلا قليلا ثم ساد الاستبداد وحل محل العلوم ظلام وانهيار .

وعندما هدأ الحماس الديني بسبب الهزائم التي لحقت العرب بعد ذلك ، اضمحل الذوق في الآداب والعلوم وأخذ ينحصر نشاطهم الفكري في الدعاية للإسلام . ولقد فقد الجنس البشري معظم آثار تلك النهضة الإسلامية ، وقد استفاد الغرب من بعض تلك الآثار وقد نتج عن ذلك النهضة الأوربية التي صاحبت سيادة مبادئ الحرية في أوربا . وبعد أن كوّن العرب دولة كبيرة تمتد من شاطئ المحيط الأطلسي إلى شواطئ الهند ، تعرضوا لغزوات البربر وانهارت معظم أجزاء تلك الدولة . أما الجزء الأصلي لتلك الدولة ، وهو شبه الجزيرة العربية ، فقد احتفظ بعاداته وروحه واستطاع الدفاع عن استقلاله .

وفي ذلك الجزء الذي يتعرض فيه كوندرسيه للعرب وجدت عبارة مكتوبة بين قوسين . وقد وضعت بين قوسين لأنها إضافات لا توجد في الأصل المنسوخ بخط كوندرسيه والموجود في المتحف الفرنسي .

هذه العبارة أنقل نصها فيما يأتي[1] :

« إن العبقرية التي وجدت عند العرب — والتي صاحبت أصحاب الحكم المستبد ولازمت ديناً متعصباً — لم تكن ظاهرة عامة وإنما هي استثناء عابر في القوانين الطبيعية العامة التي تحكم على الشعوب التي تؤمن بالخرافات بالجهل والانحطاط » .

إن هذه الفقرة لم يكتبها كوندرسيه . ولذلك يضعها « پروير » بين قوسين ( ) وهي تلك الإضافات التي وجدها « پروير » في طبعة Arago « أراجو » لكتاب كوندرسيه « الموجز » والتي لم يجدها في النسخة الأصلية التي كتبها

---

(١) Condorcet . Esquisse, P. 103

كوندرسيه بنفسه . وبذلك لا نستطيع أن نحدد من هو الذى كتب هذه العبارة وغالباً أنه « أراجو » وضعها للشرح مثلا ، ولكن لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، وقد تكون أضيفت للتشهير بالعرب والحط من مكانتهم .

وعلى كل فإن توخى الحقيقة يجعلنا نصحح المعلومات التى جاءت فى هذه الفقرة ويمكن أن نلخصها فى ثلاثة ادعاءات :

١ — إن عبقرية العرب هى أمر شاذ واستثناء للطبيعة .

٢ — إن الدين الإسلامى دين متعصب .

٣ — إن العرب (فى ذلك العصر) كانوا يؤمنون بالخرافات .

إن هذه الادعاءات الثلاثة التى أضيفت إلى أقوال كوندرسيه والتى لم يذكر منها شيئاً سواء بالتلميح أو بالقول المباشر تدل على تعصب أعمى ضد الشرق والعرب وضد أى تقدم يظهر فى الشرق ، ولذلك يجب علينا مناقشة تلك الادعاءات وتصحيح ما جاء فيها من أكاذيب .

الادعاء الأول :

إن الشرق مثل الغرب تماماً قد يتقدم وقد يتأخر ، ولا يمكن أن نعتبر تقدم الشرق ظاهرة شاذة أو استثناء للقوانين الطبيعية ، فهل يوجد قانون يفرض على الشرق والعرب الانحطاط والتأخر ؟ إنه لا توجد قوانين اجتماعية ولن توجد بهذه الصورة ، لأن تلك آراء شخصية وليست قوانين ، بل هى أمنيات بعض الأوربيين الذين أعماهم التعصب عن تسجيل الواقع بصورة موضوعية .

الادعاء الثانى :

وهو القائل بأن الدين الإسلامى دين تعصب ، هذا أيضاً كذب وافتراء فإن كوندرسيه نفسه قال ما نصه[1] : « إن ديانة « محمد » بسيطة فى عقائدها ومتسامحة فى مبادئها » ، فهل يعقل أن يشرح هذا القول بأن هذه الديانة متعصبة

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ .

كما جاءت فى هذه العبارة المضافة السابقة . إن القصد من هذه العبارة هو تشويه الحقائق والحط من تاريخ العرب . فالدين الإسلامى هو عدل مطلق وتسامح تام ليس أمامه شريف ووضيع ولا أبيض ولا أسود بل ولا مؤمن[١] ومشرك وهو عدل كامل ، فالناس فى الإسلام سواء ، لا يتميزون[٢] إلا بالتقوى والعمل الصالح ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

فقد نهض الإسلام بالإنسان إلى مكانة عليا فاحترم عقله وإرادته وحريته وتركه حرًّا من غير أن يكرهه على أن يعتنق هذا الدين أو ذاك .

فيقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ومن[٣] الأحاديث المأثورة عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

إن دينا هذه مبادئه هل يعقل أن يوصف بالتعصب ، إن العبارة التى تدعى هذا لا تدل إلا على تعصب أعمى ضد العرب والشرق والإسلام .

الادعاء الثالث :

وهو أن العرب فى أوج رقيهم وتقدمهم شعب يؤمن بالخرافة . هذا قول خاطئ من أساسه ، والحقائق تثبت خطأه ، وهذا ما نفهمه من قول أحد المؤرخين الغربيين

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجى « الإسلام وحقوق الإنسان » القاهرة ١٩٥٠ ص ١٦ .
(٢) محمد على علوبة « الإسلام والديموقراطية » القاهرة سنة ١٩٥٠ ص ٢٨ .
(٣) محمد عبد المنعم خفاجى « الإسلام وحقوق الإنسان » ص ١٧ .

(وليس العرب حتى لا يتهمنا أحد بالتعصب) يصف فيه حضارة العرب فى الدولة العباسية وهى تلك الدولة التى وصل فيها العرب إلى أعلى مراحل الحضارة والتقدم فيقول هذا المؤرخ الغربى وهو الأستاذ نيكلسن[١] : « إن لانبساط رقعة الدولة العباسية (من سنة ٧٥٠ م إلى سنة ١٢٥٨ م) ووفرة تجارتها أثرا كبيرا فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل . حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً قد تحولوا فجأة إلى طلاب علم » .

فهل دولة هذا شأنها ممكن أن تؤمن بالخرافة ؟ وهل يعقل أن نحكم عليها بذلك ؟ إننا إذا بحثنا فى ثقافتها وفنونها لن نجد أى أثر للخرافة ، فى الدولة العباسية[٢] قويت حركة النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية ، وأرسلت البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة لترجمتها .

ولقد ازدهرت فى هذا العصر العلوم جميعها من تاريخ وجغرافيا وفلك وكيمياء ورياضيات ، وكذلك ازدهرت الفلسفة والطب[٣] ، وأيضاً ازدهرت الفنون وإن كانوا لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة ، فإن هذا يرجع إلى أنهم رأوا فى ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان . هذا بجانب تقدمهم فى الآداب والشعر والبحوث الدينية ، وكذلك تقدموا فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة . هذا شىء من نهضة العرب فى ذلك العصر[٤] ، وهى تلك النهضة التى وصفها كوندرسيه نفسه[٥] بالعبقرية ؛ من هذا كله نثبت خطأ القول بأن العرب فى نهضتهم فى العصور الوسطى كانوا يؤمنون بالخرافة ، الحقيقة أنهم تمسكوا بالعلم وبالحقائق وإلا لما كان لهم نهضة .

ثم إن العبارة السابقة تقع فى خطأ آخر ، فإنها ترى أن عبقرية العرب هى

---

(١) Nichelson : Literary History of Arabs', London 1948, P. 281.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن « تاريخ الإسلام » القاهرة سنة ٥٣ ص ٢٩٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٤) د . عاطف وصفى : المجتمع العربى ، القاهرة ١٩٦٥ (راجع الفصل الخاص بالحضارة العربية وفضلها على الغرب) من ص ١٩٠ إلى ص ٢١٠ .

(٥) Condorcet : Esquisse, P. 102.

استثناء لقانون معين ، فهل يوجد قانون له استثناءات ، الواقع أن القاعدة التى لها استثناء لا تصبح قانوناً ، بهذا كله ثبت خطأ وكذب الادعاءات السابقة .

لقد اهتممت بهذه العبارة الدخيلة المغرضة ، لأننا الآن فى عصر تزدهر فيه القومية العربية ، وينهض فيه العرب لأخذ حقوقهم المسلوبة ، ولذلك لن نرضى مطلقاً أن يشوه الغربيون تاريخنا ومجدنا وعبقريتنا الأولى وكذلك لن نقبل التشكيك فى ديننا وحضارتنا الإسلامية .

٦ – نظرياته فى فلسفة التاريخ :

ترتبط نظرية كوندرسيه فى التقدم بنظرياته فى فلسفة التاريخ إذ وضع قانوناً عاماً لسير التاريخ الإنسانى ، يرى كوندرسيه أن الإنسانية تسير على ممر التاريخ فى طريق التقدم المطلق ؛ وكما ذكرت سابقاً إن أساس هذا التقدم هو العقل ، بمعنى أن العقل الإنسانى هو الذى يتقدم فى الأصل ، ويؤدى هذا إلى تقدم جميع جوانب الحياة الإنسانية من مادية واجتماعية . ويؤمن كوندرسيه إيماناً قوياً بالعلم ، وهو يرى أن التقدم العقلى هو فى حقيقته تقدم العلم .

ويقوم القانون العام الذى وضعه لتقدم الإنسانية على أساس النظر إلى المجتمعات الإنسانية وتاريخ البشر نظرة كلية عامة ، وتعرف تلك النظرة الكلية بظاهرة « تشخيص الإنسانية »[1] أى تشبيه الإنسانية بشخص واحد .

ويرى كوندرسيه أن الإنسانية فى تقدمها تسير فى عشر مراحل ، تعبر المرحلة الأخيرة أى العاشرة عن مستقبل الإنسانية ، أى عن العصر الذى يلى عصر كوندرسيه ، ولذلك تعد آراؤه فى تلك المرحلة تنبؤات تمثل أقصى مراحل التقدم الإنسانى .

وقد سجل كوندرسيه نظرياته الخاصة بفلسفة التاريخ فى كتابه الشهير « الملخص » ، ذلك الكتاب الذى يمثل أهم مؤلفات كوندرسيه ، وقد سبق

---

(١) بالفرنسية : Anthropomorphisme

ذكر الظروف القاسية التى صاحبت ذلك المؤلف[١]

ويجدر بنا قبل عرض آرائه فى فلسفة التاريخ أن نقدم فكرة سريعة عن فلسفة التاريخ .

لقد قدم لنا كثير من الفلاسفة والعلماء تعريفات عديدة لفلسفة التاريخ أهمها ما يأتى :

١ — يسمى الفيلسوف الإيطالى « فيكو » فلسفة التاريخ بالتاريخ الفكرى الدائم ويعرفها بأنها :

« قانون عام تخضع له حوادث التاريخ عند سائر الأمم وخاصة الأمم الأوربية »[٢] .

٢ — ويقول العلامة الفرنسى « دوركايم » :

« فلسفة التاريخ هى نوع من المعرفة الاجتماعية التى تبحث فى تحديد الاتجاه العام لتطور الإنسانية » ، « وهى تفكير شخص يتعلق بميول المفكر » ، « وأساس فلسفة التاريخ هو فكرة تقدم الإنسانية »[٣] .

٣ — ويرى المفكر الفرنسى « بربييه »[٤] أن :

« فلسفة التاريخ هى قسم من تاريخ الفلسفة الحديثة يقوم بدراسة الإنسانية فى جملتها » .

يتضح من التعاريف السابقة أن فلسفة التاريخ هى تفكير فلسفى يرسم خطى سير التاريخ الإنسانى بأكمله ، ويتم ذلك عن طريق وضع قانون عام يفسر تطور الحوادث التاريخية الهامة فى جميع المجتمعات البشرية .

وقد بحث الإنجليزى المفكر « وولش »[٥] موضوع ومنهج وأقسام فلسفة

---

(١) انظر صفحات ٣١ و ٣٢ .

(٢) Vico : La Science Nouvelle, Paris 1927, P. 13.

(٣) Durkheim : Les Règles de La Methode Sociologique, Paris 1938, Pp. 121, 144, 145.

(٤) Brehier : Histoire de la Phlosophie, Paris 1932, T. II, Vol. iii, P.574.

(٥) Walsh : Introduction to Philosophy of History, London, 1951.

التاريخ بصورة مستفيضة فى كتابه : «مقدمة إلى فلسفة التاريخ» ، ويقسم «وولش» فلسفة التاريخ إلى قسمين رئيسيين : فلسفة التاريخ الميتافيزيقية وفلسفة التاريخ النقدية .

وقد ظهرت فلسفة التاريخ الميتافيزيقية فى أول الأمر على يد العلامة الإيطالى «ڤيكو» Vico فى القرن الثامن عشر الميلادى (حسب رأى وولش) ، وترمى فلسفة التاريخ هذه إلى معرفة دور التاريخ الانسانى ككل ، وتتم تلك المعرفة عن طريق رسم خطة عامة تفسر حوادث التاريخ من إجمالية وتفصيلية ، وتجعلنا تلك الخطة نرى دور التاريخ بصورة متفقة مع المنطق[١] .

أما منهج فلسفة التاريخ الميتافيزيقية فيتمثل فى جميع الطرق الميتافيزيقية ومنها الإكثار من الخيال ، وخصوبة الاقتراحات والتعميمات غير الدقيقة .

وإذا انتقلنا إلى القسم الثانى : فلسفة التاريخ النقدية ، نجد أنها تختص بالصورة الحديثة لفلسفة التاريخ ، تلك الصورة التى تتفق مع بعض مبادئ المنهج العلمى الخاصة بالملاحظة ودقة المعلومات . ويحدد «وولش» أربعة موضوعات تبحثها فلسفة التاريخ النقدية وهى :

(ا) تحديد العلاقة بين علم التاريخ والعلوم الأخرى

(ب) التحقق من صحة أقوال المؤرخين والمستندات التاريخية[٢] .

(حـ) تحديد معالم الموضوعية التاريخية ، إذ يجب على المؤرخ أن يفصل بين التاريخ والدعاية[٣] .

(د) تحديد قواعد يتبعها المؤرخون فى شرح الحوادث التاريخية التى يدرسونها ، إذ أن عمل المؤرخ لا يقتصر فقط على تسجيل الحوادث التاريخية ، وإنما عليه أن يقوم بشرحها ومقارنة بعضها ببعض للوصول إلى مبادئ عامة[٤] .

---

(١) المرجع السابق : صفحات ١١ و ١٢ و ١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٢ .

إن فلسفة التاريخ التى عالجها كوندرسيه هى فلسفة التاريخ الميتافيزيقية ، وهى تمثل المعنى التقليدى لفلسفة التاريخ ، وذلك لأن فلسفة التاريخ النقدية تمثل فهماً حديثاً ظهر فى القرن العشرين . وقد وضع كوندرسيه قانوناً عاماً لتقدم الإنسانية على مر العصور ، ويقوم هذا المبدأ العام على أساس تقدم العقل الإنسانى ، فإن مراحل تقدم الإنسانية هى ذاتها مراحل تقدم العقل البشرى . وقد مر هذا التقدم الإنسانى فى عشر مراحل ، تمثل المرحلة العاشرة منه مستقبل الإنسانية فى العصور التى تلى عصر كوندرسيه . وفيما يلى عرض ومناقشة أهم نظرياته فى المراحل العشر لتقدم الإنسانية .

المرحلة الأولى : ظهور الجماعات الإنسانية الأولى :

يرى كوندرسيه أن استخدام الملاحظة لتحديد نشأة المجتمع الإنسانى لا يفيد فى شىء ، ولذلك فهو يعتمد على التخمين ، ومما يساعد على فهم هذه المرحلة فحصنا للقدرات العقلية والأخلاقية والتركيب الجسمى للإنسان ، وكذلك تحليلنا لتطورات تلك القدرات على مر العصور .

وأول مجتمع ظهر هو الأسرة ، وهى مجتمع طبيعى بالنسبة للإنسان ، ومما أدى إلى تكوين الأسرة حاجة الأطفال إلى آبائهم لرعايتهم وكذلك حنان الأم والأب لأطفالهما ، وإن كان حنان الأب أقل عمومية وحيوية من حنان الأم ، وإن اعتماد الأطفال على آبائهم مدة طويلة أعطى الفرصة لظهور الشعور بالرغبة فى استمرار وجود الأسرة ، وهذا أدى بالتالى إلى أن الإنسان لمس بوضوح الفوائد التى يجنيها من معيشته فى مجتمع ٥

وقد استقرت الأسرة الواحدة على قطعة من الأرض تستغلها كمورد للعيش ، ثم أخذت تتكاثر ويزداد عددها ويكبر حجمها وأصبحت معشراً ، وقد يتكون المعشر بتجمع عدة أسر ، ولكن النوع الأخير أقل انتشاراً من النوع الأول وظهر بعد فترة من الزمان من ظهور المعشر الذى يرجع إلى أسرة واحدة تكاثرت وزاد حجمها .

وكان ظهور الفنون العملية فى هذا العصر هو الثمرة الأولى لحياة الإنسان فى جماعة ،

والفنون العملية عند كوندرسيه هى التى تميز المجتمع الإنسانى عن المجتمع الحيوانى ، وهذه الفنون هى فن صنع الأسلحة وفن الطبخ وفن إعداد الأدوات اللازمة للطبخ وفن حفظ المأكولات لمدة محدودة وفن إعداد المؤونة للفصول التى لا يتوافر فيها الطعام .

وكان المورد الأساسى للحياة فى هذه المرحلة هو الصيد البرى والبحرى ، وفى بعض المعاشر كان النساء يزرعن بعض المزروعات حول الأكواخ ، وفى معاشر أخرى كانت الأرض تقدم من تلقاء نفسها بعض الخضروات ، وكان البدائيون يشغلون جزءاً من أوقاتهم فى البحث عن هذه الخضروات وجنيها .

وكان يوجد فى هذه المرحلة لغة لفظية مستعملة فى كل مكان ، إن تكرار واستمرار العلاقات بين الأفراد والمصالح المشتركة والمساعدات المتبادلة فى عمليات الصيد الجمعى وفى مقاومة عدو مشترك أدى إلى وجود شعور بالعدالة وأدى إلى وجود مشاركة وجدانية بين أعضاء المجتمع الواحد ، وبعد ذلك بقليل تحولت هذه العاطفة نحو المجتمع نفسه ، أى أن الأعضاء أصبحوا يحبون المجتمع نفسه وهذه العاطفة الأخيرة أدت إلى وجود الرغبة للأخذ بالثأر من أعداء المجتمع أو المعشر .

واحتاجت هذه المعاشر إلى زعيم ينظم الدفاع ووسائل المعيشة وبذلك ترددت الفكرة الأولى عن السلطة السياسية ، وكان أفراد المعشر يتناقشون ويتشاورون فى حل المشاكل التى تعترض حياتهم اليومية وقد حال ضعف النساء الفسيولوجى دون اشتراكهم فى هذه المناقشات أو الحروب أو فى عمليات الصيد البعيدة .

وكانت توضع السلطة فى أيدى الذين يحصلون على ثقة الغالبية وكانت تكتسب تلك الثقة عن طريق صفات شخصية أهمها السن وقوة الشخصية ، وقد ظهرت اللغة قبل تلك التنظيمات ويرجع تكوين اللغة إلى المجتمع كله ، وقد تم فى تلك المرحلة الأولى اختراع القوس الذى يرجع إلى رجل ذى عبقرية ،

وبينما تكونت اللغة ببطء وبصورة تدريجية تم اختراع القوس سريعاً .

ويرى أن الرقص والموسيقى يرجعان إلى هذه المرحلة الأولى للإنسان ، وكانوا يؤدونها لتسلية الشباب وفى الأعياد الشعبية ، وكان يوجد فى هذه المجتمعات أغان للحب ونشيد للحرب وقد صنعوا بعض الآلات الموسيقية ، وكان فن الخطابة معروفاً فى هذه المرحلة وعلى الأقل كانوا يستخدمون نغمة أعمق وأقوى من الكلمات العادية فى خطب الزواج .

ويحدد العيوب التى وجدت فى هذا العهد بأنها ظهور الخرافة بكامل أنواعها والانتقام والقسوة فى معاملة الأعداء واستعباد النساء .

ولم تخرج العلوم الوحيدة عند هؤلاء عن بعض معلومات مشوهة عن الفلك والنباتات الطبيعية التى كانت تستخدم لعلاج الأمراض ، وكانت تلك المعلومات مختلطة بالخرافات ولهذا كانت فاسدة .

وفى هذا العصر ظهرت طبقة من الأفراد تكتم فى نفسها أسس العلوم ومبادئ الفنون والأسرار والحفلات الدينية وتطبيق الخرافات وأحياناً كان لديها أسرار التشريع والحكم ، كانت هذه الطبقة هى الطبقة الحاكمة ذات النفوذ .

ويرى أنه من الممكن تقسيم الأفراد فى ذلك الوقت إلى قسمين :

١ — قسم يتخصص فى التعليم وهى الطبقة الحاكمة .

٢ — قسم ما عليه إلا التصديق (الشعب) .

القسم الأول يخفى فى غرور الأمور والمعلومات والأسرار التى يتيه بمعرفتها والآخر يتلقى باحترام ما يسمح له القسم الأول من معلومات ، ومن الممكن ملاحظة بقايا هذا التقسيم فى القرن الثامن عشر على يد القساوسة ، ورغم أن هذا التميز يتكرر فى كل العصور إلا أنه ليس أمراً طبيعياً أو فطرياً فى الإنسان[1] .

---

(١) Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrés de l'Esprit Humain, Paris 1933 pp. 14-19.

المرحلة الثانية : الرعى

تولدت فى العقول فكرة المحافظة على الحيوانات التى يصيدونها عند ما لاحظوا فوائد استئناس الحيوان ، وخاصة أنه لا يكلفهم شيئاً ، فالحشائش موجودة فى الأراضى المحيطة وكذلك توجد المزروعات الفائضة عن الحاجة ومما ساعد على عنايتهم بالحيوانات واستئناسها أنهم وجدوا فيها مورداً دائماً لحياتهم يريحهم من عناء الصيد وخاصة أن الصيد يفشل كثيراً . وعلى مر الزمن أصبح الصيد هواية ، وكذلك وسيلة لحماية قطعان الماشية من الحيوانات المفترسة .

وقد ترتب على اكتشاف الرعى أن أصبحت الحياة أكثر استقراراً وأصبح لهم فى المرحلة الجديدة وقت فراغ استغله الإنسان فى التفكير والتأمل مما أدى إلى تقدم الفنون العملية فعرفوا النباتات الملائمة للحيوانات المستأنسة فعملوا على زيادة إنتاجها وتحسين أنواعها .

وعرف الإنسان فى هذه المرحلة كيف يستخدم الصوف فى صنع الملابس ، ولقد تقدم الفلك فى هذه المرحلة، لأن الرعاة كانوا يلاحظون الكواكب ليلا أثناء حراسة قطعانهم .

ولقد ظهرت فى هذه المرحلة عادات جديدة منها عادة الكرم والضيافة وكانت تتمثل فى الكرم من فرد لفرد ، ومن عائلة لعائلة ومن شعب لشعب ، وأيضاً ظهرت عادة الخير أو الإحسان وإعطاء الغير ، وذلك لأن بعض العائلات أصبح لها مورد رزق خصب أدى إلى وجود فائض عن الحاجة بينما وجد أفراد تنقصهم الحاجات الضرورية .

وفى هذه المرحلة أيضاً رقت المعاملة فى داخل الأسرة عن ذى قبل وأصبح استعباد النساء أقل قسوة ، وترفع نساء الأغنياء عن الأعمال الصعبة .

وفى ذلك الوقت تنوعت الآلات ، وزاد عددها عن ذى قبل ، أما عن

حركة المبادلة فقد انتشرت وزاد نشاطها وظهرت التجارة بمعنى الكلمة ، وشعروا بالحاجة الملحة لمقياس عام للقيم ومن هنا ظهرت النقود .

وقد ظهر التفاوت فى الثروات بصورة واضحة فى هذه المرحلة إذ أن قطعان الماشية عند العائلات لم تتكاثر بنفس النسبة . وقد زادت عند بعض العائلات بدرجة كبيرة ، مما أدى إلى التفكير فى البحث عن أشخاص للعناية بتلك القطعان فوجدوا ضالتهم فى الأسرى فاحتفظوا بهم كأرقاء بدلا من قتلهم .

أما من الناحية السياسية فقد زاد عدد السكان فى هذه المرحلة إذ تجمعت المعاشر فى وحدات اجتماعية أكبر وهى القبائل ، وكل مجموعة متشابهة من القبائل انتظمت فى أمة ، وكان لكل أمة رئيس للحرب . وكان السن والخبرة والبطولة والثروة من العوامل الهامة فى اختيار الزعيم أو الرئيس سواء على مستوى المعشر أو القبيلة أو الأمة . وكان رؤساء القبائل والمعاشر يحلون المنازعات بين الأفراد أو الجماعات وفق العرف والعادات التى أصبح الجميع يحترمونها وقد ساعد هذا التنظيم الاجتماعى على تقدم المجتمع .

ولقد تقدمت اللغة فأصبحت غنية بالتعبيرات والمعانى ، وكذلك الحالة بالنسبة للأغانى والشعر والآلات وكان طول وقت الفراغ من العوامل الهامة فى تقدم هذه الظواهر .

وفى هذا العصر أيضاً ، وضع أساس الرق وعدم المساواة فى الحقوق السياسية بين البالغين .

ونلاحظ تقدم الأديان غير السماوية التى يسميها كوندرسيه بفن خداع الناس لأنها فى ذلك الوقت كانت ترمى للسيطرة على عقول الأفراد ، ففى تلك المرحلة وجدت عقائد منظمة وأفكار واضحة وظهرت طبقة حاكمة من الكهنة وهؤلاء من العائلات والقبائل المقدسة . وكان يجمع الكهنة بين الطب والفلك وهذه بعض وسائلهم للسيطرة على عقول الأفراد .

وبالرغم من انتشار الرعى كمورد للحياة ، فنى بعض الأماكن جمع الإنسان بين منتجات الماشية وما تقدمه الأرض من حبوب وفاكهة ، وفى هذه الأماكن بدأ الإنسان يهتم بالخضروات وأخذ يبحث عن الأنواع اللذيذة وبدأ الإنسان يستسيغ طعم الخضروات والحبوب ويكثر منها وخاصة فى الأماكن الخصبة ، واستطاعت أعداد كبيرة من الأفراد العيش فى الأماكن الخصبة ، بينما لا تستطيع تلك الأعداد من البشر العيش على نفس مساحة الأرض إذا اعتمدت على الرعى ، ولهذا فإنهم استخدموا الحيوانات فى عمليات الزراعة وعند ما تقدمت آلات الحرث والفلاحة ظهرت أهمية الزراعة على أنها وسيلة خصبة للحياة ، وفى هذه اللحظة وصل الإنسان للمرحلة الثالثة وهكذا يسير الإنسان فى طريق التقدم[١].

المرحلة الثالثة : الزراعة . . . حتى اختراع لغة الكتابة

يبدأ كوندرسيه كلامه عن هذه المرحلة بالقول بأن التشابه الذى وجد ولاحظناه بين المرحلتين السابقتين يختفى فى هذه المرحلة أى أن هذه المرحلة الثالثة تختلف عن المرحلتين السابقتين .

تتميز هذه المرحلة بالحروب والغزوات وتكوين الإمبراطوريات وسقوطها ، وكان من نتائج هذه الحوادث أن تكونت أمم وتجمعت عائلات وتفرقت أخرى وتجمعت شعوب مختلفة فى أمة واحدة ، ولكن هذه الحوادث من حروب وتكوين إمبراطوريات وأمم ليست واضحة المعالم لقدمها ولكن الآثار المترتبة عليها يمكن ملاحظتها فى حياة الناس فى ذلك الوقت ، وأحياناً فى حياتنا نحن أنفسنا .

فى هذه المرحلة انتشرت الفنون العملية وتعقدت وبالتالى زاد نشاط الإنسان وأصبح ينفذ العمل بدقة وبسرعة أكثر مما سبق ويبذل مجهوداً أقل مما كان يبذله قبل ذلك ، ولقد تعددت المهن وأصبح هناك تخصص فى شئون الزراعة وآخر

---

(١) Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique; Paris 1933, pp. 20-26.

فى صناعة الآلات وثالث فى حراسة حيوانات الرعى وتخصص آخر فى صناعة القماش .

وبجانب هذه المهن انتشرت ونمت التجارة وأصبحت تشمل بضائع كثيرة ، وأصبح هناك طبقة من الناس متخصصون فى شراء البضائع وحفظها ونقلها ثم بيعها من جديد بثمن أعلى ، ولقد لاحظنا فى المرحلة السابقة وجود ثلاث طبقات : طبقة الملاك وطبقة الخدم والعمال وطبقة العبيد، أما فى هذه المرحلة فقد أضاف طبقتين جديدتين وهما التجار والصناع .

ومن حيث التشريع وإصدار القوانين أصبح هذا المجتمع المعقد الجوانب فى حاجة ملحة إلى قوانين أكثر انتظاماً وقوة من القوانين السابقة بحيث تحدد عقوبات للجرائم المتعددة وتحدد أيضاً صوراً وأشكالا للاتفاقات التى انتشرت مع انتشار التجارة والصناعة والمهن .

أما من ناحية التعليم فى العصور الأولى أى المرحلتين السابقتين كان التعليم فى المنزل ، فكان الأب يعلم الأبناء الأعمال الشائعة والفنون التى يعرفها ، وكان يلقنهم القصص والأساطير والتقاليد والقواعد الخلقية البسيطة وكذلك تاريخ الأسرة ، وكان الأبناء يتعلمون من زملائهم الغناء والرقص والتمارين العسكرية ، أما فى هذه المرحلة فكان أطفال العائلات الغنية يتلقون نوعاً من التعليم الجماعى فى المدن ، وكان يقوم بالتدريس كبار السن ، وفى بعض الأحيان كان يجتمع الأطفال فى منزل الرئيس حيث يتلقون عرف وتقاليد البلاد ، وكذلك فن إلقاء الشعر وغنائه .

ومن ناحية علاقة الرجل بالمرأة ، أصبحت العلاقة تقوم على مقدار كبير من المساواة ، فقد تغيرت تلك النظرة القديمة التى تعتبر المرأة عبداً عديم الفائدة ، وأصبح الرجل فى هذه المرحلة ينظر إلى المرأة على أنها زميلة تحقق الخير له ، ولكن لم تكن تلك المساواة كاملة فلم تطبق فى الواجبات وفى حق الانفصال وفى عقوبة الخيانة .

وكان رئيس الأمة فى هذا العصر يحكم حكماً استبدادياً وكثيراً ما يؤدى طمعه وغروره إلى ارتكاب الكثير من الجرائم التى مبعثها الانتقامات الشخصية ، وقد زاد الظلم والاستبداد فى كثير من الأمم إلى حد جعل صبر الشعوب ينفد ، فثاروا وأعدموا هؤلاء الرؤساء وعائلاتهم وأحياناً كانوا يكتفون بطردهم أو بإجبارهم على الخضوع لمبادئ العدالة .

ولو أن تاريخ الجمهوريات يرجع إلى المرحلة القادمة إلا أن هذه المرحلة تقدم لنا خطوات تمهيدية فقد أخذ الاستبداد فى الانكماش وبدأت الشعوب فى التخلص من العبودية المفروضة عليها بالقوة .

ويرى كوندرسيه أن أصل الاستبداد يرجع إلى أن الملوك والرؤساء كانوا محوطين بالحراس المسلحين الأقوياء ، وكان الملوك يغدقون على حراسهم الأموال بغير حساب ولهذا كان الحراس ينفذون جرائم الملوك دون مناقشة أو تأخير .

وفى هذه المرحلة ظهر الإقطاع الذى تولد مع الحروب وما تحويه من انتصار شعب على آخر ، فكانت الأمة المنتصرة تستبد بالأمة المهزومة عن طريق رجالها الذين يقومون بجباية الضرائب وسلب ثرواتها . وكانت الأمة المنتصرة توزع على جنودها أراضى الأمة المهزومة بمن وما عليها ، وهكذا أصبح سكان الأمة المهزومة عبيداً بصورة أقل وحشية من عبودية العصور السابقة ويعرف هؤلاء بعبيد الأرض ومن هنا نشأ نظام الإقطاع وفيه تمتلك فئة قليلة من الناس مساحات شاسعة من الأرض ، بينما تعمل الغالبية العظمى من السكان كأجراء فقراء فى تلك الأراضى ومن هنا نلاحظ أيضاً أن كلاً من الاستبداد والإقطاع قد نتج عن الحروب والقهر والقوة .

وكونت الأمم التى كانت ترجع إلى أصل واحد وتتكلم لغة واحدة اتحاداً يجمعها على أساس الألفة والتعاون وكان من دوافع اتحادهم إما وجود عدو مشترك أو قيامهم بطقوس دينية متشابهة أو أخذهم بالثأر بصورة جماعية .

وقد لعبت كل من عادة الكرم وحرفة التجارة دوراً كبيراً فى خلق علاقات التعاون والألفة بين الأمم المختلفة ، ورغم أن هذه العلاقات كثيراً ما كانت تقطعها حوادث السلب والحرب إلا أن علاقات الألفة كانت أقوى من عوامل الفرقة .

ولم يكن هناك نظام عسكرى دقيق بل كان كل رجل يملك سلاحاً يعد جندياً والذى يستخدم سلاحه بمهارة أكثر من الآخرين يستطيع أن يصبح رئيساً ، وكان يطيعه الآخرون بصورة إرادية ولذلك لم تكن طاعة عبد لسيده .

أما الإمبراطوريات التى أسسها الفاتحون والتى قامت على القوة والقهر فقد قدمت لنا أنواعاً كثيرة من الذل والخزى والفساد، وقد ترتبت هذه الرذائل على الاستبداد والحكم المطلق والخرافة المسيطرة على العقول ، وقد نص القانون على معظم تلك الرذائل ومن أمثلة ذلك ، احتكار الحكام لأموال الشعوب والعقوبات القاسية التى كانت تفرض على الشعوب .

وينتقل كوندرسيه بعد ذلك إلى الفنون العملية : استطاع الإنسان فى المرحلتين السابقتين استخدام الخشب والحجر وعظام الحيوانات فى صنع الآلات ، وتوصل إلى فنون أكثر صعوبة مثل فن صناعة الفخار وفن نسج القماش وفن إعداد الجلود وفن الصباغة، وبدأوا فى استخدام المعادن، ولقد اختلفت سرعة تقدم تلك الفنون فى هذه المرحلة حسب اختلاف المكان ، ففى الأمم التى كانت تعيش فى عزلة سار تقدم الفنون ببطء شديد ، أما فى الأمم التى كانت تحتك وتتصل ببعضها كانت الفنون تتقدم بسرعة . ومن العوامل التى عرقلت نمو وتقدم الفنون العملية الحروب والفتوحات والاستبداد وسيطرة الخرافات على الشعوب فبينما نجد بعضها يتمتع بتقدم وازدهار فى الفنون العملية ، نجد شعوباً أخرى غارقة فى جهل مطلق وانحطاط تام .

أما عن العلوم فقد تقدمت فى المجتمعات الهادئة المستمرة أى التى بقيت مدة طويلة ولم تمت أو تهزم ، وهذه العلوم هى الفلك والطب وأفكار بسيطة فى التشريح ومعرفة المعادن والمزروعات والمبادىء الأولى لدراسة الظواهر الطبيعية

وقد تقدمت تلك العلوم ببطء عن طريق تنوع وتراكم الملاحظات .

ويرى كوندرسيه أن رجال الدين والسحرة والمشعوذين كانوا يستخدمون الزهد والتقشف والفضائل الظاهرية كوسيلة لخداع الشعب والسيطرة عليه بالخرافات وكانوا يحاولون الوصول إلى اكتساب معلومات جديدة أو معارف وعلوم جديدة وكانوا يحتفظون بما يعرفونه من مبادئ العلوم ولا ينشرونها بين الناس ، وكانوا يستخدمون تلك المعلومات فى خداع الأفراد والسيطرة على نفوسهم ومن الممكن تحديد درجة تقدم العلوم فى تلك المرحلة فيما يأتى :

الفلك :

كان حكماء هذه المرحلة مهتمين على الخصوص بالفلك ولقد وصلوا فيه إلى أعلى درجة من المعارف يمكن الوصول إليها بغير استخدام النظارات المقربة أو النظريات الهندسية ، فعن طريق ملاحظاتهم المستمرة للكواكب استطاعوا التنبؤ بالظواهر الفلكية ، ولكن لم توصل تلك الملاحظات هؤلاء الفلكيين إلى القوانين العامة ، وساعدت تلك المعلومات على إشباع حب الاستطلاع عند الإنسان .

الحساب :

نلاحظ أنهم لم يصلوا إلا إلى العمليات الأولية فى الحساب ، ومن المحتمل أننا ندين لهؤلاء إلى تلك الفكرة الممتازة عن التدرجات الحسابية وهى الطريقة التى تقدم كل الأعداد الممكنة بواسطة عدد صغير من العلاقات أو الرموز وتساعد تلك العملية على تقوية العقل البشرى .

الهندسة :

اقتصرت على الأمور الضرورية الخاصة بالمساحة والفلك العملى .

الطب والجراحة :

درسوا على الخصوص ما هو متصل بمعالجة الجروح ولكنهم أهملوا علم التشريح .

علم النبات والتاريخ الطبيعي :

توصلوا إلى معلومات قليلة تولدت عن استخدام بعض النباتات وبعض المعادن فى نواح عملية تماماً .

الكيمياء :

لم تكن إلا فن إعداد بعض التركيبات أو معرفة بعض الأسرار التى تستخدم إما فى الطب أو الفنون أو السحر ، وكانت الكيمياء فى ذلك الوقت خالية من النظريات ومن المنهج .

يرى كوندرسيه أن تقدم العلوم فى هذه المرحلة لم يكن إلا وسيلة لتقوية سلطان الحكم وليس لتقدم العلم فى ذاته فهذه غاية ثانوية ، ويقول إنهم لم يبحثوا عن الحقيقة إلا ليزيدوا أخطاءهم . ويرى أيضاً أن هذا التقدم الذى شرحناه سابقاً ، رغم ضعفه وبطئه ، لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقته معرفة الكتابة لأنها الطريقة الوحيدة لنشر المعارف وتسجيلها .

التعليم :

اخترعت الكتابة الهيروغليفية قبل تكوين الطبقات المتعلمة ، تلك الطبقات التى كان هدفها الأول السيطرة على العقول وخداع الشعب . ولذلك لم تكن تعلم إلا ما يخدم مصالحها وكانت تخفى عنه الحقائق وكانوا يخلطون العلوم بالتقديس وبالمعجزات الخارقة للطبيعة وهكذا كان الشعب ينظر إلى الطبقة المتعلمة على أنها طبقة ممتازة سامية من طبيعة أخرى تستمد معلوماتها من السماء ، وكانت

الطبقة المتعلمة تقسم الحقائق والمعلومات إلى قسمين : قسم تحتفظ به كسر ، وطبعاً هو القسم الذى لا يخدم مصالحها ، وقسم آخر تقدمه للشعب فى صورة تساعد على استمرار سيطرتهم .

ويرى كوندرسيه أن تلك الطبقات المتعلمة قد غرتها سيطرتها على عقول العامة فلم تتابع البحث عن الحقيقة ، بل لم تحافظ على مالديها من معلومات اللهم إلا ما هو ضرورى لاستمرار سلطانها ، ولذلك توقف كل تقدم فى العلوم وهكذا حكم على إمبراطوريات شاسعة فى آسيا وأوربا بالجهل أزماناً طويلة .

وقد استطاعت فى تلك المرحلة بعض شعوب آسيا اختراع الحروف الأبجدية ، وقد بدأ الطريق الموصل لاختراع الحروف الأبجدية باختراع اللغة الهيروغليفية . ولا يوجد دليل يبين لنا بدقة زمان ومكان استخدام الكتابة الأبجدية لأول مرة فى تاريخ الإنسانية . ولقد نقل اختراع الحروف الأبجدية من الشرق إلى بلاد الإغريق ، تلك البلاد التى لعبت دوراً رئيسيًّا فى تقدم الجنس البشرى وخير الإنسانية[١].

المرحلة الرابعة : تقدم العقل الإنسانى فى حضارة الإغريق . . . حتى عصر تقسيم العلوم فى زمن الإسكندر الأكبر تقريباً : لم تستطع اليونان تحمل ظلم واستبداد الملوك فترة طويلة فقامت فيها الثورات وأسست الجمهوريات . ومما ساعد على ذلك اتصال اليونان بغيرها من الشعوب ، فقد كان هناك اتصال بين اليونان وشعوب الشرق ، وكان هذا الاتصال عن طريق المنفيين الشرقيين الذين يلجأون إلى اليونان وعن طريق اليونانين الذين يسافرون إلى الشرق ، أتاح هذا الاتصال الفرصة لليونان للتعرف على حضارة الشرق ، فأخذوا فنون تلك الشعوب وجزءاً من معارفهم واستعمال الكتابة الأبجدية ونظامهم الدينى ، ويمكن القول أن اليونان نقلت عن آسيا ومصر الحقائق والأخطاء معاً .

---

(١) المرجع السابق من ص ٢٧ إلى ص ٤٥ .

وأهم ما تتميز به تلك المرحلة أن العلوم فى اليونان لم تكن محتكرة لطبقة معينة كما كان الحال سابقاً ، بل هى أمر عام يشترك فيه كل شخص ، وقد اقتصرت وظائف الكهنة على عقائد الآلهة فقط ، وبذلك أصبح لكل الناس الحق فى معرفة الحقيقة فكل يونانى مهما كانت وظيفته أو طبقته يستطيع أن يبحث عن الحقيقة وأن ينقلها إلى الآخرين، وهكذا لم تصبح العلوم فى تلك المرحلة خاضعة لرجال الدين أو للحكام المستبدين .

أدت هذه الظروف الجديدة الملائمة إلى استقلال العقل الإنسانى وإلى ضمان سرعة انتشار وسير التقدم . ولكن رغم استقلال العلوم عن الكهنة فإن حكماء اليونان الذين اتخذوا اسم الفلاسفة أو أصدقاء العلم والحكمة — حاولوا أو أرادوا أن يصلوا إلى طبيعة الإنسان وطبيعة الآلهة وأصل العالم ، وحاولوا إرجاع الطبيعة كلها إلى مبدأ واحد أى إخضاع ظواهر الكون المتعددة لقانون واحد ، وحاولوا إرجاع كل الواجبات الأخلاقية إلى قاعدة واحدة تفسر السلوك كله ، إن البحث فى هذه الموضوعات البعيدة جعلهم يتركون العنان لخيالهم حتى وصلوا إلى آراء مجردة لا يمكن إثباتها ، وقد أدى اهتمامهم بهذه الموضوعات العميقة إلى إهمال الكشف عن الحقائق ، وكذلك إهمال ملاحظة الظواهر ، وتاهوا فى هذا المجال الواسع الذى ليس له حدود .

ولكن رغم هذا ، فإننا ندين لهم على الخصوص بوضع أسس الهندسة والفلك وكذلك بعض الحقائق الجديدة ، وعندما أخذوا المعلومات التى اكتسبوها من الشرق هذبوها واستخرجوا منها المبادئ والأدلة ولم يأخذوها على أنها معتقدات ثابتة لا مجال لمناقشتها .

وظهرت فى اليونان فكرتان قيمتان؛ ظهرتا ثانية من جديد فى العصور الأكثر تقدماً ، الأولى هى رأى ديمقريطس الخاص بأن ظواهر الكون ترجع لذرات أجسام بسيطة لها شكل محدد ثابت وتتحرك هذه الذرات بسبب دفعة أولى ، والفكرة الثانية هى رأى فيثاغورس القائل بأن العالم خاضع لنظام متسق ومنسجم

تقرر أسسه ومبادئه النسب العددية، أى أنه يريد أن يقول إن كل الظواهر خاضعة لقوانين عددية .

ولقد اكتشف فيثاغورس النظام الحقيقى للعالم أى الوضع الحقيقى للأجسام السماوية ، ولكن هذا النظام لم تقره الحواس وعارضته السوقة؛ ولهذا لم يجذب إليه العقول ، وظل مختبئاً فى صدر المدرسة الفيثاغوريه حتى ظهر من جديد فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى مؤيداً بأدلة مؤكدة وهكذا انتصرت هذه الفكرة على معارضة الحواس والخرافة .

وانتشرت أضواء المدرسة الفيثاغورية فى كل اليونان ، وأصبح تلاميذها مشرعين ومدافعين عن حقوق الإنسان ، ولكن الاستبداد خاف على سلطانه ، فقام واحد من أنصاره وحرق الفيثاغوريين فى مدرستهم ، وكانت هذه الفعلة دليلاً على جنون أعداء الحرية وتقدم العقل .

ومن الأخطاء التى يرى كوندرسيه أن اليونان قد وقعوا فيها ، أنهم كانوا يؤسسون النظريات العامة من خيالهم بدون الاعتماد على الحقائق الجزئية أو الظواهر ، وكانوا فى الموضوعات البعيدة لا يفكرون فى الوسائل والطرق الموصلة إليها ، فالتفكير النظرى البحت والتأمل العقلى دون الاعتماد على ملاحظة الظواهر والبحث العلمى هو ما يعيبه كوندرسيه على اليونانيين .

ويعجب كوندرسيه بسقراط الذى — أثناء صراعه مع السوفسطائيين — صاح فى اليونانيين بأن ينزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وليس معنى هذا أن سقراط احتقر الفلك والهندسة وتعصب للدراسات الأخلاقية ، فقد تقدمت تلك العلوم على أيدى تلاميذ سقراط ، وهذا دليل على أن قوله لم يعن قصر البحث على الأخلاق فقط ، لقد قصد سقراط بقوله هذا أن يسير الإنسان فى طريق المعرفة خطوة خطوة وعليه أن يتأكد من كل خطوة قبل الانتقال إلى غيرها وقبل أن يبحث الإنسان فى الأفق الواسع عليه أن يدرس الظواهر المحيطة به والمساحة التى يعيش عليها .

ويرى أن حادثة موت سقراط دليل آخر على استمرار الحرب بين الفلسفة والخرافة ، تلك الحرب التى استمرت إلى عصره وهى تشبه حادثة حرق المدرسة الفيثاغوريه، ويرى كوندرسيه أن تاريخ هذا الصراع بين الفلسفة والخرافة من الموضوعات التى يهتم بذكرها فى التاريخ الذى يكتبه .

يرجع كوندرسيه ثانية إلى وصف الحالة الدينية عند اليونان ، فيقول إن الكهنة كانوا فى غاية الحنق لتقدم الفلاسفة ولكثرة أتباعهم ولنشرهم للحقائق وعزلهم العلم عن الدين ، وقد دفعهم الغضب إلى اتهام الفلاسفة بالكفر بالآلهة واستطاعوا إلحاق الضرر بالكثير من الفلاسفة . وأوضح دليل على ذلك سقراط الذى استشهد فى سبيل البحث عن الحقيقة .

جاء بعد سقراط تلميذه أفلاطون الذى كان متأثراً بسقراط وخاصة فى أسلوبه المرح وخياله اللامع ، ولهذا نجد محاولات أفلاطون خالية من جفاف المناقشات الفلسفية ، ويدهش كوندرسيه من أن أفلاطون الذى كتب على بابه « لا يدخل علىّ إلا من درس الهندسة » هو نفسه الذى كتب فى محاوراته فروضاً باطلة وأوهاماً خيالية ، ولكن هذا التعجب وهذا التناقض الظاهر يختفيان إذا عرفنا أن أفلاطون فى هذه المحاورات لم يتكلم باسمه مطلقاً وإنما باسم سقراط ، ثم إن أفلاطون مزود بشك يمنعه من إطلاق العنان للأوهام مهما كانت تلك الأوهام مغرية .

وظهرت فى اليونان الكثير من المدارس الفلسفية ، وكثر أتباعها ، وأدت إلى انتشار العلوم وإلى تقدم العقل فى وقت لم تكن فيه الطباعة قد عرفت بعد، وكانت الكتابة الخطية شبه نادرة وقد اشتد التنافس بين هذه المدارس لدرجة أن العاطفة الشخصية والتعصب لمذهب معين كثيراً ما كانت تعارض العاطفة النبيلة التى ترمى لتنوير عقل الإنسان ، وقد خلقت هذه المنافسة ذاتها نشاطاً مفيداً ، بل إن ملاحظة هذه الخصومات والخلافات الفكرية قد دفعت بعض الأفراد إلى دراسة الفلسفة بينما لم يكن يؤثر فيهم حب الحقيقة وحدها . وكانت تلك المدارس

تتمتع بحرية كاملة ولم تخضع كما هو الحال عند معظم الشعوب إلى سيطرة الدين والكهنة وكان لكل شخص الحق فى فتح مدرسة جديدة، وكان تأثير الفلاسفة قوياً على عقول اليونانيين وفى جميع جوانب حياتهم : عاداتهم وقوانينهم وحكوماتهم وسياستهم وتصرفاتهم اليومية .

وكانت الفلسفة فى هذه المرحلة تجمع كل فروع المعرفة ما عدا الطب الذى كان منفصلا عن الفلسفة قبل ذلك ، ويمكن معرفة مستوى الطب فى هذه المرحلة عند قراءة كتابات هيبوقراط ، ويحدد تقدم العلوم عند الإغريق بالصورة التالية :

العلوم الرياضية :

أسست بنجاح فى مدرستى طاليس وفيثاغورس ، ولكنها لم تفق كثيراً العلوم الهندسية التى وصل إليها الشرقيون فى كاياتهم أو مدارسهم الكهنوتية، وقد قفزت هذه العلوم إلى مرتبة عالية فى مدرسة أفلاطون فلقد حل أفلاطون مشكلة المكعب ، واكتشف تلاميذه الأول التتابع المخروطى وحددوا نسبه الأساسية ؛ وبذلك فتحوا أمام العقل أفقاً شاسعاً .

علم السياسة :

تقدم فى اليونان ؛فقد ألزم الشعب الفيلسوف بتحرير القوانين وذلك لثقة الشعب بحكم وعدالة الفيلسوف ، ولكنهم لم يفوضوا إليه أية سلطة . ولكن من الأمور المؤسفة تشويه النظم السياسية بالأفكار الخرافية؛ فقدكانت السياسة لا تزال خالية من المبادئ والأسس الثابتة ، ولهذا نرى المشرعين يتأثرون فى علاقاتهم وفى معاملاتهم بعواطفهم ومعتقداتهم ، وهكذا لم يقيموا تشريعاتهم على أساس العقل الذى يقر الحقوق الطبيعية للبشر جميعاً ، وإنما أسسوا قوانينهم بصورة تتيح الفرصة لجماعة معينة أن تتوارث الحكم فى مجتمع ما . ويرى كوندرسيه أننا لا نجد بسهولة أية جمهورية يونانية فى هذه المرحلة تشبه تماماً

الجمهوريات واليوتوبيات التى صورها الفلاسفة .

وظهر فى هذا العصر نوع من الاتحادات بين الجمهوريات اليونانية ، وكانت المعاهدات التى تعقد بين تلك الجمهوريات تحدد بوضوح أشكال والتزامات تلك الاتحادات ، إن دراسة الحكومات التى أقيمت فى اليونان فى تلك المرحلة تكفى لإنشاء علم سياسة واضح المعالم .

الاقتصاد السياسى :

ظهرت الخطوط الأولى لهذا الفرع من المعرفة فى تلك المرحلة ، فنجد الكثير من التشريعات المنظمة للجوانب الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة . وهنا يشير كوندرسيه إلى ملاحظة هامة : بينما تقر كل التشريعات والتنظيمات اليونانية الرق ، نجد الكثير من الأفكار والنظريات الفلسفية التى تنادى بضرورة تحقيق خير وحرية الجنس البشرى كله .

التشريع :

قارن كوندرسيه بين التشريعات اليونانية وتشريعات الحضارات الشرقية القديمة ، كانت التشريعات الشرقية القديمة تتصف باستعباد الرعية وبتحقيق صالح الحاكم وإرادته ، أما التشريعات اليونانية فقد كانت نابعة عن ميثاق جمعى بين الرجال وكانت تحتم المحافظة على حرية المواطنين . ويرى كوندرسيه أن تلك الاختلافات لا تزال موجودة فى العصور الحديثة بين قوانين الشعوب الحرة وقوانين الشعوب المستعبدة .

التعليم :

كان التعليم عند الإغريق جزءاً من السياسة ، وكان يرمى إلى تكوين مواطنين صالحين يفضلون حبهم للوطن عن حبهم لأنفسهم ولعائلاتهم . ونظراً لأن مزاولة

الفنون العملية والزراعية كانت قاصرة على العبيد فقد اقتصر التعليم على تمارين الجسم ومبادئ الأخلاق والعادات الحسنة التى تثير الوطنية . وبعد الانتهاء من تلك المرحلة الأولى يصبح الشباب أحراراً فى تحديد مستقبلهم ، فقد يلتحقون بالمدارس الفلسفية أو بمدارس معلمى البيان أو باستديوهات الفنانين لتكملة تعليمهم .

الفنون :

تقدمت الفنون عند اليونانيين ووصلت إلى كمال لم يعرفه أى شعب آخر ، ومن أمثلة الفنانين العباقرة فى هذه المرحلة ما يأتى :

« هوميروس » Homeros و« ديموستين » Domestene و« پندار » Pendare و « سوفوكل » Sophocles و « فيدياس » Phidias

ويرجع رقى الفنون فى تلك المرحلة إلى عوامل متعددة مثل عبقرية الفنانين والحرية التى عاشوا فيها ، وقد عمل رقى الفنون على تحسين وتهذيب العادات والأخلاق . ويلاحظ كوندرسيه أن هناك تلازماً بين انتشار الفضائل وتقدم الفنون والعلوم .

ويرى كوندرسيه أن مدحه للإغريق لا يعنى انعدام الرذائل فى تلك المرحلة ، فقد كان هناك بعض الرذائل ، ولكنها ترجع فى الحقيقة إلى العصور السابقة ، وهكذا ورثت الحضارة اليونانية تلك الرذائل ولم تخلقها ، ويعارض كوندرسيه بشدة الرأى الذى يرجع تلك الرذائل إلى تقدم العلوم والفنون عند اليونان ، ويؤكد كوندرسيه أن كل تقدم حقيقى فى العلوم والفنون لا بد أن يتبعه تقدم فى الأخلاق والطباع والعادات ، وكذلك يصرح بأن كل تأخر فى الفنون والعلوم يلازمه دائماً تأخر وانحطاط فى الأخلاق[1].

---

(١) المرجع السابق من ص ٤٦ إلى ص ٦١ .

المرحلة الخامسة :

تقدم العلوم منذ فترة تقسيمها حتى انهيارها : يحدد كوندرسيه عصر تقسيم العلوم بالفترة التى سبقت مباشرة انهيار المدنية اليونانية وسلب اليونان حريتها . كان تقسم العلوم حاجة ضرورية بسبب اتساع نطاق البحث . وعندما انهارت المدنية اليونانية هرب العلماء اليونانيون إلى بلاد الشرق وخاصة مصر ، وقد منع حكام مصر انتشار المذاهب الفلسفية اليونانية هناك ،ولكنهم شجعوا العلوم لفوائدها العملية ، وأصبحت مدينة الإسكندرية أكبر مركز للعلوم والتجارة فى ذلك الوقت .

ومن السهل تحديد بداية عملية تقسيم العلوم، إذ تم ذلك عندما انفصلت العلوم الرياضية عن الفلسفة وأصبحت الرياضة بعيدة عن المحاولات المدرسية والآراء المذهبية التى كانت تخضع لها الفلسفة فى ذلك الوقت ، وترتب على نقسيم العلوم أن أصبحت الفلسفة مقتصرة على مبادئ النظم العامة والميتافيزيقا والجدل والأخلاق ،وكانت السياسة تعتبر فى ذلك الوقت جزءاً من الأخلاق .

ويتحدث كوندرسيه بعد ذلك عن فروع المعرفة وما أحرزته من تقدم فى تلك الفترة ، وفيما يلى ملخص لما ذكره .

العلوم الرياضية :

تقدمت العلوم الرياضية بدرجة كبيرة بفضل العبقرى اليونانى « أرشميدس » الذى وصل إلى اكتشافات متعددة فى هذا الميدان ، أهمها ما يأتى :

١ ـ وضع أسس علم جديدة يعرف فى العصور الحديثة بالحساب اللانهائى.
٢ ـ أول من حدد العلاقة بين قطر الدائرة ومساحتها .
٣ ـ أول من وضع أسس الميكانيكا العقلية .
٤ ـ اخترع اللولب الذى يحمل اسمه .
٥ ـ اخترع المرآة الحادة أو الدقيقة .

ولم تظهر بعد اكتشافات أرشميدس فى الهندسة والميكانيكا أية اكتشافات مخالفة لما وضعه ، وإنما حقائق جزئية مكملة لما أسسه .

علم الطبيعة :

لم يعالج أرسطو الطبيعة بنفس الدقة التى عالج بها تاريخه للحيوانات ، ولقد تأثر فى بحثه فى الطبيعة بالطريقة الفلسفية التى تفترض مبادئ عامة مبهمة ولقد شوهها بتلك التعميمات ، وقد عالج تاريخ النبات وتاريخ المعادن بدقة كبيرة واعتمد على الملاحظات الدقيقة وقام بتنظيمها وتبويبها ، أما الطبيعة فلم تكن الملاحظة وحدها كافية للكشف عن أسرارها وإنما كانت تحتاج إلى التجارب التى تعتمد على الآلات التى لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، ولهذا اقتصر علم الطبيعة فى ذلك العصر على عدد صغير من المعلومات ترجع للمصادفة وللملاحظات التى تؤدى إلى تطبيق الفنون عمليًّا ولا تؤدى إلى أبحاث علمية .

فن التشريح :

تقدم ببطء واضح ، وذلك لأن الأفكار الدينية كانت تعارض تشريح الجثث ، إذ كانوا يعتقدون أن ملامسة الجثة نوع من الدنس .

الفلسفة :

وجدت أربع مدارس فلسفية فى اليونان فى الوقت الذى كانت فيه اليونان تنهار أمام الرومان ، هذه المدارس هى :

١ ـ الأكاديمية : (مدرسة أفلاطون) :

كانت تظهر نزعة الشك وعدم التأكد ، ولقد نسيت أن الشك إذا زاد عن حده يساعد على الجهل والفساد ، وهذا الخطأ الذى وقع فيه السوفسطائيون وقع فيه أتباع أفلاطون فى الأكاديمية ، ولكن هذا الشك

المتطرف لم يشمل كل المذهب الأكاديمى ، فإن الاعتقاد بفكرة أزلية للعدل والجمال والشرف مستقلة عن الأهواء الشخصية مطبوعة فى نفوسنا كانت موجودة فى الأكاديمية ، وهى الفكرة التى شرحها أفلاطون فى محاوراته والتى وضعها كأساس للتعاليم الأخلاقية .

٢ ــ مدرسة المشائين (مدرسة أرسطو) :

كانت تطبق أفكار أرسطو ولذلك اهتمت بتحليل العقل الإنسانى ، ويعد هذا العمل خطوة هامة فى سبيل معرفة العقل الإنسانى ، واهتمت أيضاً بقياس أرسطو الذى قسم فيه التفكير والقضايا إلى أربعة أنواع ، ثم وضع نظاماً قياسيًّا مكوناً من ثلاث قضايا ينتقل فيه الحكم من الكل إلى الجزء ، ووضع لها قواعد فنية دقيقة وأخذت المدرسة فى شرح نظرية أرسطو فى الأخلاق وملخصها : أن الفضيلة هى الوسط العدل بين طرفين كلاهما رذيلة .

٣ ــ الرواقية :

ترى تلك المدرسة أن الخير الحقيقى هو الفضيلة التى هى تحرير النفس من الخضوع للعواطف بحيث لا تشعر باللذة أو الألم ، وترى أن الإنسان لديه من الإرادة القوية ما يوصله إلى هذه المرحلة ، وتعتقد فى وجود عقل عام يحل بهذا العالم ويوجهه ، وتصدر الأرواح الإنسانية عن هذا العقل ، وبعد الموت ترجع الروح إلى أصلها وتتحد بالعقل العام ، والموت عند تلك المدرسة خير والحكيم هو الذى يخضع للطبيعة أى للعقل العام .

٤ ــ الأبيقورية :

ترى الخير فى التمتع باللذة واختفاء الألم والتمتع بميولنا الطبيعية بكامل قوتها ، ويتم ذلك بنزع الخوف والندم والخجل من نفوسنا وبتوجيه الميول الطبيعية نحو

الشعور باللذة ، وترى أيضاً أن العالم هو مجموعة ذرات خاضعة فى حركتها لقوانين ضرورية ، وأن النفس الإنسانية تتكون من مجموعة ذرات فى اللحظة التى تبدأ فيها حياة الجسم وتتفرق فى اللحظة التى يموت فيها الجسم وتجتمع تلك الذرات المتفرقة فى تجمعات جديدة ، واعترفت الأبيقورية بوجود إلهين حتى تمنع ثورة العامة عليها .

وبعد هذا العرض للمذاهب الفلسفية التى وجدت فى أثينا وقت انهيار اليونان ، يقول كوندرسيه إن الجمهوريات اليونانية انهارت أمام الرومان وأصبحت كغيرها من أجزاء الإمبراطوريات الرومانية تعيش بإرادة وعواطف زعماء روما . ويصف الحياة السياسية فى روما المدينة الحاكمة وما فيها من نظام الأشراف المتوارث الذى كان نظاماً ثابتاً قوياً ، وكان الشعب الرومانى مدرباً على الأسلحة ولم يكن يستعملها فى الفتن والخلافات الودية بينهم ، وأخذ الرومان من اليونانيين علومهم وفنونهم وفلسفتهم وبحثوا عن أساتذة يونانيين لتعليمهم فن الفصاحة الذى كان طريقاً موصلا للثروة ، بل لقد استولوا على التحف اليونانية وأخفوها فى إيطاليا ، ولكنها ظهرت بعد ذلك فى معابدهم فى مدنهم المزخرفة . وكانت العلوم والفنون والفلسفة غريبة تماماً عن التربية الرومانية ، ورغم أن « شيشرون » و « لوكريس » و « سينكا » قد كتبوا فى الفلسفة باللغة الرومانية ، فإن أفكارهم لم تخرج عن الفلسفة اليونانية ، ويحلل كوندرسيه هذا الموقف بأن الرومانيين كانوا مشغولين بالحروب ، ثم ظهرت بينهم خلافات أدت إلى وجود جو عسكرى طابعه الاستبداد ، وهذا جو غير ملائم للتأملات الهادئة العميقة ولذلك لم تتقدم هذه الأمور على أيديهم .

ولكنهم اهتموا بدراسة الفقه والقانون لأنه كان من الطرق المؤدية إلى الجاه والسلطان وقد اهتم به ذو الميل الطبيعى للدراسة ، وفى هذا العصر ظهرت فى روما القوانين المكتوبة وتعقدت إلى الدرجة التى شعروا فيها بالحاجة لشرح تلك

القوانين ، ورأى مجلس الشيوخ أن امتياز شرح القانون أصبح تقريباً مساوياً لحق عمل قوانين جديدة ، ولقد كثر الفقهاء وقوى مركزهم وأصبحوا أقوى من مجلس الشيوخ ذاته لأن عددهم كان كبيراً ، إن الفقه هو العلم الوحيد الجديد الذى ندين به للرومان . ويرى كوندرسيه أننا ندين للقانون الرومانى بالقليل من الحقائق المفيدة والكثير من الأفكار الاستبدادية الظالمة .

كان هناك عاملان يقومان بنشر الفلسفة والعلم والجمع والتوفيق بين المذاهب المختلفة ، هذان العاملان هما وجود شعوب مختلفة فى مملكة واحدة وانتشار كل من اللغة اليونانية واللغة الرومانية بين المتعلمين . وقد ضعفت بالتدريج الاختلافات التى بين المذاهب الفلسفية ، وأدى هذا إلى اختيار المبادئ التى تتفق مع العقل فى كل مذهب والجمع بين هذه المبادئ فى مذهب واحد ، ويرى كوندرسيه أننا نرى عند « سنيكا » آثاراً تدل على ذلك .

أما من حيث الدين فقد كانت الأديان متشابهة من حيث الطقوس والتماثيل وبعض الأسرار ولم يكوّن الكهنة أى اتحاد دينى عام يجمعهم ، وكان يشك الرومان المتعلمون فى تلك العقائد والطقوس وخاصة التضحيات الدموية والأصنام ، ولم يزاول الكهنة أى عمل نحو الحكومة أو القانون أو الأخلاق إذ اقتصر نشاطهم على الدين فقط ، وعند ما اتصلت شعوب الإمبراطورية الرومانية بعضها ببعض ظهرت أشعة التقدم ، ولاحظ المتعلمون أن هذه الأديان كلها ترجع إلى عقيدة واحدة وأن الاختلافات ماهى إلا اختلافات شكلية ، وقد هاجم كوندرسيه تلك الأديان فيرى ان الشعوب السيئة الحظ المهزومة استمرت مرتبطة بالأديان السرية وذلك لأن المصلحة الشخصية للكهنة جعلتهم يوحون إلى الشعب بالمساواة فى العبودية وبأن مباهج الحياة حقيرة وبأن الثواب فى الآخرة مخصص للذين يخضعون خضوعاً تاماً للقسوة وللذل . وقد انكشف أمر الكهنة بفضل التحليلات الفلسفية الدقيقة وخاصة محاورات أفلاطون وأفكار أرسطو .

ويكرر كوندرسيه أن ثقافة وآداب روما ما هى إلا نتائج ضرورية لتأثير

ثقافة وآداب اليونان ، ولقد تقدمت روما فى الشعر والخطابة والتاريخ وفن معالجة الموضوعات الفلسفية والعملية الجافة بأناقة ، حقاً إن اليونان نفسها لم يكن عندها شاعر صوّر فكرة الكمال كما صورها « ڤيرجيل » ، ولم يكن عندها مؤرخ فى مرتبة « توسيت » ، ولكن هذه اللحظة من التقدم تبعها انهيار مفاجئ ، إذ أنه منذ زمن « لوسين » Lucien لم يظهر فى روما إلا كتاب ضعاف .

ويرى كوندرسيه أن تلك اللحظات من الرقى فى مهد الرومان لم تكن منبثقة من ذوق شعبى عام ولا نتيجة عبقرية أمة أو تقدم دولة وإنما كانت من عمل بعض رجال صنعتهم اليونان ، ولذلك يقول كوندرسيه إن روما كانت تربة غريبة بالنسبة للآداب التى وجدت فيها .

ولقد اهتمت روما وكذلك اليونان مدة طويلة بفن الخطابة وفن المعاملة وتزيين المرافعات والتقريرات ، ولكن هذا الفن أصبح مهملاً فى العصور الحديثة .

وينتقل كوندرسيه بعد هذا العرض ، إلى الكلام عن الكتب التى كانت موجودة فى هذه المرحلة .

فيقول إن الكتب كانت كثيرة بعض الشىء ، وإن مكتبة الإسكندرية ازدحمت بكتب القواعد والنقد الأدبى ، ويرى أن اهتمام المطلعين كان منصباً على واضع الكتاب وشهرته وليس على ما فى الكتاب من الحقائق والمعلومات ، وهذا يعد تبريراً للخطأ الذى وقع فيه واسعو الاطلاع أو المطلعون اليونانيون والرومانيون إذ كانت تنقصهم روح الشك والفحص والبحث عن الأدلة ، ويرى أن عدم اختراع الطباعة فى ذلك الوقت كان سبباً هاماً فى عدم تعمقهم فى البحث ، وذلك لقلة النسخ فلم يستطيعوا المقارنة بين الأقوال المختلفة ، ولذلك كانوا يثقون فى أول كتاب يقع فى أيديهم وكانوا يؤمنون أيضاً بمبدأ فاسق معين ويقبلون كل ما يجىء به هذا المبدأ دون تمحيص ، ويرى أن التمحص الدقيق العلمى لم يحدث إلا فى القرن الثامن عشر . وساد الاعتقاد بين المذاهب الفكرية

المختلفة فى روما بظهور مسيح أى رسول من الله يصلح الجنس البشرى ، وقامت المحاولات حول تحديد زمن ومكان ظهوره ، وحقاً جاء الرسول عيسى (عليه السلام) وظهر فى فلسطين وأتى بمعجزات فاقت ما جاء بها الأنبياء السابقون .

وكان المدافعون عن المسيحية يكرهون تقدم العلوم الطبيعية لأن تقدمها كان يضعف إيمان الناس بالمعجزات التى تعترف بها المسيحية ، ولذلك كان انتصار هؤلاء المدافعين علامة لانهيار العلوم والفلسفة ومما ساعد على هذا الانهيار عدم اكتشاف الطباعة فى ذلك الوقت ، فقد كانت الكتب المكتوبة باليد قليلة جداً غير منتشرة ولا يقتنيها إلا الأغنياء ، وكان من السهل على الحكام إخفاء تلك النسخ القليلة ، ويرى أن الأبحاث المتفرقة لم يكتب لها البقاء وذلك لأنه لم ينسخ إلا الكتب التى اشتهر مؤلفوها ، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى عدم تقدم العلوم ، بل كانت العلوم مدفوعة بقوة هائلة إلى الانهيار ؛ ويعطى كوندرسيه لعدم اكتشاف الطباعة أثراً كبيراً فى انهيار العلوم فى ذلك الوقت ، ويرى أنه بعد اختراع الطباعة لم يكن لرجال الكنيسة نفس القوة فى هدم العلوم[1] .

المرحلة السادسة :

فترة انهيار العلوم حتى بداية تقدمها ثانية فى زمن الحروب الصليبية

انهارت العلوم فى هذا العصر وسادت الدسائس وسيطر الجهل ، ورغم ذلك استطاع بعض العباقرة أن يشقوا طريقهم بصعوبة كبيرة فى ذلك الظلام الدامس ، ويقسم كوندرسيه بحثه عن ذلك العصر إلى قسمين قسم خاص بالغرب والآخر بالشرق .

---

(١) المرجع السابق من ص ٦١ إلى ص ٨٩ .

أولاً – الغرب :

وقع الغرب فى أيدى البرابرة الغزاة ، ورغم اعتناقهم المسيحية فقد أشاعو الفوضى والهمجية فى ربوع أوربا . ورغم هذا تحطم الرق وألغى فى ذلك العصر ، إذ عندما فتح البرابرة روما انضم العبيد إلى جيوش الفاتحين وكون بعضهم قبائل تدين بالولاء للأمة المنتصرة ، وعمل البعض الآخر كخدم فى منازل الفاتحين ، ولم يهتم البرابرة باقتناء العبيد أثناء حروبهم ، بل كانوا يبحثون عن الأراضى والمستعمرات ، ومما ساعد على إلغاء الرق مبادئ المسيحية القائلة بالأخوة والحب إذ نادى القساوسة فى مواعظهم بإلغاء الاستعباد ومما زاد تحمسهم عدم وجود مصلحة شخصية لهم فى بقائه ، ويعد هذا التغيير نواة لثورة كبيرة فى حقوق الجنس البشرى للوصول للحرية الحقيقية .

احتفظت روما بشىء من الاستقلال فى ذلك العصر لأنها كانت فى حمى رئيس الديانة ، وكان القساوسة رغم خضوعهم للبابا يكونون قوة منافسة له . وحاولت روما فرض سلطان القساوسة على العالم أجمع فكونت فى كل أمة جيشاً منهم يقوم بنشر الخرافات الخادعة والتعصب الأعمى والفتن الأهلية ، بل لقد أباحوا باسم الله الخيانة والقتل والرشوة والكذب والخداع ، وكانوا يوجهون الملوك والشعوب وهكذا سيطروا على القوة دون امتلاكها .. ويستطرد كوندرسيه فى وصف ما قاسته الشعوب من استبداد وظلم الملوك والقساوسة ، ورغم قساوة القوانين وعدم دقتها كان المتهم يستطيع شراء العقوبة المفروضة عليه بقدر معين من المال يحدده القانون الذى كان يقدر حياة الناس حسب مراكزهم وثرواتهم وأصلهم وليس حسب أعمالهم ، وكان القضاة لايعتمدون على الأدلة فى أحكامهم وإنما على الخرافات والاعتقاد فى المعجزات .

ثم ينتقل إلى وصف فساد رجال الدين فى تلك المرحلة فيعرض بالتفصيل

لصكوك الغفران والأسعار التى حددها القساوسة لتلك الصكوك ، وكان ذلك فرعاً من تجارة كهنوتية مربحة ، فكانوا يقصرون ويطيلون فى مدة العقاب التى سيقضيها الفرد فى الجحيم بعد موته وهذا أولا بالنسبة للأحياء ثم بالنسبة للآباء والأصدقاء من الأموات ، ووصل بهم الهوس إلى بيع أفدنة فى السماء بأثمان معينة . وكانوا يجبرون الملوك على حرق وإعدام كل من يجرؤ على الشك فى عقائدهم أو على الكشف عن جرائمهم ، وكان هذا العقاب نفسه مطبقاً على رجال الدين أنفسهم إذا ثاروا على جرائم إخوانهم .

ثانياً ــ الشرق :

رغم ظهور الكثير من المشاجرات والمعارك الدينية فى الشرق فى ذلك العصر ، فقد كان التعصب الدينى أقل توحشاً وقسوة مما كان عليه الحال فى الغرب ، وكانت الأوهام التى سادت الشرق أكثر رقة وأقل خيالا مما سيطر على العقول فى الغرب ، ويؤكد كوندرسيه أن الشرق لم يصل إلى درجة الانحطاط والهمجية التى وصل إليها الغرب فى العصور الوسطى ولكن لم تظهر فيه بذور البناء والتقدم من جديد مثل ما حدث فى أوربا .

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن العرب فيقول إنه على حدود آسيا وأفريقيا كان يعيش شعب شجاع هرب من هزائم الفرس والإسكندر والرومان ، يتكون ذلك الشعب من قبائل متعددة لا تربطها أية رابطة سياسية ، ولكنها متحدة فى الأصل واللغة والعادات . وفجأة ظهر فيها رجل وحد صفوفهم وعودهم على قبول فكرة الرئيس ، وأقام على بقايا عقائدهم المتفرقة ديناً جديداً أكثر نقاء وطهارة ، كان هذا الرجل مشرعاً ونبياً وقاضياً وإماماً وقائداً للجيش فى وقت واحد ، واستخدم النبى محمد (صلعم) كل الوسائل التى تخضع الرجال ، وعرف كيف يستخدمها بخبرة ولكن فى عظمة وهيبة ، وهكذا كسب المعارك ونشر الدين الجديد وقد لازمته

الصلاة فى كل لحظاته . ويعرض كوندرسيه لحادثة تشير إلى عدل الرسول فبعد أن وصل النبي إلى مراكز القوة جمع الناس فى أحد الأيام وأعلن أمامهم أنه إذا كان قد اقترف ذنباً فهو مستعد أن يفعل ما يطلب منه فى سبيل إصلاح ما وقع فيه من خطأ ، وصمت الجميع أمام النبي إلا امرأة واحدة تقدمت وطلبت منه مبلغاً صغيراً من المال .

وقد ساعد الدين الجديد على تطوير أخلاق العرب وعاداتهم فأصبحت رقيقة ، وقد كتبوا شعراً جميلا وخاصة عندما حكموا أجمل أجزاء آسيا وأوربا ، أما فى الأوقات التى هدأ فيها الحماس الدينى بسبب الهزائم فإن الذوق فى الآداب والعلوم أخذ ينحصر فى الدعاية لعقيدتهم ، وقد تقدمت العلوم بدرجة كبيرة عند العرب إذ درسوا أرسطو وترجموا كتبه ، ووضعوا أسس الفلك وعلم البصريات وكل فروع الطب ، وغذوا هذه العلوم بكثير من الحقائق الجديدة ، ويرجع إليهم تعميم استعمال الجبر بعد أن كان عند اليونان قاصراً على نوع واحد من التمرينات واخترعوا الكيمياء وهى علم تحليل الجسم المركب وتحويله لعناصره البسيطة وتوصلوا إلى الكثير من قوانينها . وقد تقدمت العلوم عند العرب عندما عاشوا فى حرية ، ولكن لم تستمر تلك الحرية إلا قليلاً وحل مكانها الاستبداد وظلم رجال الدين ، وهكذا انهارت الدولة العربية سريعاً فبعد أن كانت تمتد من المحيط الأطلسى إلى شواطئ الهند انقسمت إلى أجزاء متنازعة ووقعت فريسة فى أيدى التتار الذين أشاعوا الفوضى والفساد فى معظم ربوعها .

ويحلل كوندرسيه الديانة الإسلامية فيرى أنها أكثر بساطة فى عقائدها وأكثر تسامحاً فى مبادئها وأقل غموضاً فى طقوسها وهو يقارن هنا بينها وبين حال المسيحية فى القرون الوسطى فى أوربا ، ويقرر أنه فى الوقت الذى سادت فيه حضارة عظيمة فى الشرق نجد الغرب خاضعاً للجهل والفوضى والتعصب . ولقد فقد الجنس البشرى معظم الآثار العربية ولكن استمرت بعض تلك الآثار فى صورة جديدة وهى النهضة الأوربية التى صاحبت ظهور أشعة الحرية فى أوربا ، وأخيراً

يقرر كوندرسيه أن العبقرية فى الشرق كما كانت فى اليونان تلازم دائماً الحرية إذ تعيش بها وتموت معها[١] .

المرحلة السابعة : منذ بداية تقديم العلوم فى الغرب حتى اختراع الطباعة :

نشط العقل الإنسانى بالتدريج بعد فترة الركود الطويلة السابقة ، وكان لهذا النشاط أسباب كثيرة ، فقد أثار تعصب رجال الكنيسة واستبدادهم وآثامهم ونفاقهم النفوس الطاهرة والعقول السليمة ذات الشجاعة التى أعلنت الحرب عليهم ، وقد كشف الجميع حقيقة رجال الكنيسة عندما لاحظوا التناقض الواضح بين سلوكهم وأقوال الإنجيل .

فقامت مقاطعات فى وسط فرنسا بالدعوة لمذهب أكثر بساطة يتلخص فى مسيحية خالصة يخضع فيها الإنسان لله وحده وينفذ أحكام الكتاب المقدس ، وأثارت تلك الدعوة حقد رجال الكنيسة فقاموا بتشكيل محكمة من الرهبان تسوق الموت لكل شخص يستمع إلى عقله ، فشنقوا الكثيرين ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على تلك الروح التى انتشرت سرًّا بين الناس ، وعندما اخترعت الطباعة أصبح هذا التقدم من القوة والانتشار بحيث خلص جزءاً كبيراً من أوربا من عبودية رجال الكنيسة الكاثولوكية وقويت حركة الصراع بين الاستبداد الدينى والعقل ومبادئه ، وظهر صراع بين الحكومات ورجال الدين وقامت معارك بين الملوك والأشراف ، وأصبح التنافس صريحاً بين الملوك والبابوات ، وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى استقلال عدد كبير من مقاطعات إيطاليا ولم تصبح إيطاليا خاضعة لسيد واحد .

وأمام هذا الهجوم على استبداد رجال الدين ، اضطر القساوسة أن يدرسوا ويقرأوا حتى يحموا أنفسهم ويبرروا سلبهم للأموال كى لا يتحملوا إلا أقل الخسائر أمام المدعين والمطالبين بحقوقهم ، ولقد دفع الحماس الدينى الغربيين

---

(١) المرجع السابق من ص ٩٠ إلى ص ١٠٣ .

إلى غزو الأماكن المقدسة الخاصة بموت ومعجزات المسيح (يقصد الحروب الصليبية) . إن هذه الحروب التى شنتها الأفكار الخرافية الدينية كانت سبباً فى القضاء على هذه الأفكار ذاتها ، وذلك لأنها أدت إلى اتصال الشعوب الغربية بالعرب وأدت إلى التعرف على دين جديد مشابه للمسيحية فى نواح ومختلف فى نواح أخرى ، هذا الاختلاف جعل الغربيين يشعرون بوجود مشكلة أمامهم ، وبالإضافة إلى ما سبق فقد أنشأت الحروب الصليبية علاقات بين الغرب والشرق أهمها ظهور تجارة البندقية وجنوة ، وقد تعلم بعض الغربيين اللغة العربية وقرأوا كتب العرب وانتفعوا من علوم العرب واكتشافاتهم ونظرياتهم ، ولم يصل الغربيون إلى الدرجة التى وصل إليها العرب فى علومهم ، ولكن كان لديهم الطموح للمساواة بهم .

قلنا سابقاً إن عدداً كبيراً من مقاطعات إيطاليا قد استقل وكون جمهوريات تشبه جمهوريات اليونان ، وحدث نفس الشىء فى شمال ألمانيا حيث استقلت المدن . وظهرت فى هذا العصر فى كل الأمم الكبيرة مثل إنجلترا وفرنسا دساتير غير ناضجة وغير كاملة ، وذلك لأنها كانت تقوم على أساس التمييز بين الطبقات وإعطاء امتيازات للأشراف « والبارونات » ، أى كان يسود تلك الدساتير الطغيان والاستبداد ، ورغم هذا كانت تلك الدساتير ذاتها أساساً للحرية التى لم يكن أحد يتصورها أو يعقلها فى هذا العصر ، فلم يتصور أحد أن تلك الحقوق التى يختصون بها طبقة الأشراف هى حقوق طبيعية للجنس البشرى أجمع واستطاعت الشعوب عن طريق الثورات تعميم تلك الحقوق بحيث تشمل الفقير والغنى .

ثم ينتقل كوندرسيه إلى الكلام عن العلوم والفلسفة فى هذا العصر .

لم ترتق السياسة والتشريع والاقتصاد السياسى إلى مستوى العلوم إذ لم يهتم أحد بالتعمق والبحث فى مبادئها ، ورغم هذا فقد تقدمت عن طريق الخبرة والاستفادة من النتائج العملية .

الفلسفة :

عرفوا أرسطو عن طريق الترجمات التى قام بها العرب ، وسيطرت فلسفة أرسطو على مدارس هذا العصر ، وهى نفس الفلسفة التى كانوا يهاجمونها قبل ذلك . لم تؤد فلسفة أرسطو إلى تقدم هذه المدارس ، ولكنها ساعدت على تنظيمها ووضع منهج للمناقشة أقوى من طريقة المناقشات الدينية . ولم تصل تلك المدارس إلى الكشف عن الحقيقة ولم تناقش الأدلة ولكنها حمست الأرواح ، وظهر ميل واضح لضرورة تقسيم الأفكار وتنظيمها وكان هذا التقسيم الأصل للتحليل الفلسفى الذى هو المنبع الخصب لتقدمنا .

العلوم الطبيعية :

لم تصل هذه العلوم عندهم إلى ما وصلت إليه عند العرب ، فلم يكن هناك إلا بعض أبحاث خاصة بالتشريح وتركيبات كيماوية غامضة ودراسات هندسية وبعض ملاحظات على الحساب الفلكى مختلطة بعمليات التنجيم .

الفنون الميكانيكية :

تقدمت تلك الفنون على نقيض العلوم ، فأصبحت بلاد البحر الأبيض المتوسط الأوربية تنتج الحرير ، وعرفوا الطواحين الهوائية ، وتقدموا فى قياس الزمن . ويتميز هذا العصر باكتشافين هامين هما : اكتشاف البوصلة الذى يقوم على أساس معرفة طبيعة حجر المغناطيس الممثلة فى اتجاهه إلى اتجاه معين ، وقد عرف الصينيون هذه الخاصية فى العصور السابقة . وكان اكتشاف استعمال البوصلة سبباً فى نشاط الملاحة والتجارة والوصول إلى كشف العالم الجديد .

أما الاكتشاف الثانى فهو البارود ، وكان لهذا الاكتشاف أثر كبير فى الحرب ، إذ جعل الحرب أقل خسارة فى الأرواح وتوحشاً فى القتال ، وأدى إلى

اختفاء امتياز النبلاء على الشعب باستعمال أسلحة غالية الثمن وجياد سريعة ، إذ أصبح استعمال البارود عاما ، لا فرق بين نبيل وفقير ، وترتب على ذلك مساواة واقعية .

اللغة :

تقدمت ونضجت فى إيطاليا ، وكانوا يدرسون النماذج الأثرية القديمة وينقلونها إلى لغتهم الجديدة . ويرى أن اللغة الإيطالية وصلت إلى كمالها تقريباً فى القرن الخامس عشر حيث نلاحظ كتابات رقيقة جميلة لكل من « دانتى » و « بوكاسو » و « بترارك » ، وكذلك تهذبت باقى لغات أوربا ورقت بفضل تذوق الآداب والشعر .

الأخلاق :

بقيت على حالها من الفساد والقسوة والتعصب الدينى . وقد حدث تغيير فى أخلاق النبلاء (طبقة الفرسان) ، ويتمثل التغيير فى شىء من النعومة والرقة والرقى والكرم ، ولكن هذا التقدم كان قاصراً على هذه الطبقة المميزة . أما بالنسبة للشعب فقد استمرت قسوة الحكام عليه واستبدادهم به ، ويرى كوندرسيه أن رقة طبقة النبلاء ترجع إلى العرب الذين من صفاتهم الكرم وقد نقلت أخلاقهم إلى أوربا عن طريق إسبانيا ، وبذلك وضع العرب بذور الإنسانية التى لا تظهر إلا فى عصر أكثر تقدماً من هذا العصر . وكذلك أعد العقل الإنسانى فى تلك المرحلة للتقدم الذى ترتب على اختراع الطباعة[١] .

المرحلة الثامنة : منذ اختراع الطباعة حتى العصر الذى فيه أخذت العلوم والفلسفة تهدد الاستبداد :

كان لاختراع الطباعة آثار قوية فى تقدم العقل البشرى ، إذ جعلت الطباعة للكتاب الواحد نسخاً كثيرة يمكن أن يمتلكها كل من يعرف القراءة والكتابة ،

(١) Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrés de l'Esprit Humain, Paris 1933, pp. 104 - 115.

بينما كانت الكتب قبل ذلك مقصورة على الأغنياء بسبب ارتفاع ثمنها ، فقد كانت منسوخة باليد وقليلة جداً ، وبالتالى أصبحت الكتب وسيلة لمخاطبة الشعب أو الشعوب التى تتكلم لغة واحدة ، أى أصبحت نوعاً جديداً من منابر الرأى .
ويقارن كوندرسيه بين الكتب المطبوعة وبين الخطابة فيقول إن الكتب أقل حيوية من الخطابة وذلك لأن الخطابة تعتمد على العاطفة أما الكتب فعلى العقل ، ولكن الكتب كوسيلة للاتصال الفكرى أكثر عمقاً من الخطابة ، وتؤدى إلى خلق أفكار واضحة أكثر بقاء ، وكذلك تمتاز الكتب على الخطابة بأنها سريعة فى نقل الأفكار إلى الأماكن البعيدة وبأنها أعم انتشاراً . ومن آثار الطباعة أيضاً أن أصبحت المشاكل عامة يلم بها معظم أفراد الشعب ، وأصبح فى الإمكان أن يشعر بتلك المشاكل عدة شعوب فى وقت واحد .

أخذت الكتب تكثر فى جميع فروع المعرفة وفى كل مستويات التعليم ، فظهرت الكتب المبدئية والقواميس والكتب العلمية المفصلة عن التجارب والملاحظات والأدلة ، وترتب على ظهور تلك الكتب المتعددة بكميات كبيرة أن أصبح سير العقل الإنسانى أكثر سرعة وسهولة ويقيناً .

وبعد ظهور الطباعة تحرر التعليم من استبداد الدين والسيطرة السياسية ، وأصبح لكل كتاب آلاف النسخ وأصبح لكل فرد الفرصة للتعليم وللاعتماد على عقله فى تكوين رأى مستقل عن كل سيطرة خارجية ، وقد خاف رجال الدين والمستبدون أن يكشف الناس آثامهم وجرائمهم ، فأخذوا يحرقون النسخ المكتوبة باليد التى تكشف عن حقيقتهم ، وأعلنوا حرباً واهية على العقل ، انتصر فيها العقل فى النهاية .

اكتشفت الطباعة فى عصر يتفق فيه تقريباً حدوث أمرين هامين كان لهما أثر كبير فى تقدم العقل الإنسانى وهما :

١ – استيلاء الترك على القسطنطينية :

أدى ذلك إلى هروب أدباء الإغريق إلى إيطاليا ، وهناك دأبوا على البحث

والقراءة والتأليف ، وكتبوا فى أول الأمر نسخاً بخط اليد ، وبعد اختراع الطباعة طبعوا نسخاً تمثل اتجاهاً جديداً فى التفكير ، فلم يهتموا كما نادى « أرسطو » بالناحية الصورية بل اهتموا بالبحث عن الحقائق الواقعية ، وتجرأ بعضهم ونقد آراء أرسطو وأفلاطون ، ساعد كل هذا النشاط الفكرى على سرعة تقدم العقل الإنسانى .

٢ ـ اكتشاف العالم الجديد والطريق الموصل للأجزاء الشرقية من آسيا وأفريقيا :

اكتشف « جاما » الهند ، واكتشف « كولومبس » عالماً جديداً يمتد من غرب أوربا إلى شرق آسيا ، وكانت تلك الاكتشافات نتيجة مثابرة وحب استطلاع نبيل ، وقد أدت هذه الاكتشافات إلى تقدم الجنس البشرى ، ولكن التعصب والدناءة والانحطاط دفع الملوك اللصوص إلى استغلال شعوب هذه الأماكن المكتشفة ، فلم يعاملوهم على أنهم بشر مثلهم ، وكان تبريرهم لذلك أنهم غير مسيحيين ، إن التعصب دفع هؤلاء الملوك إلى القتل والنهب واقتراف كل الآثام التى تحرمها المسيحية ، وتشهد على ذلك عظام خمسة ملايين قتيل مدفونة فى هذه الأرض المكتشفة ، وقد قتل البرتغاليون والأسبان هذه الأعداد الضخمة فى عملية استيلائهم على الأمريكتين . وكان من نتائج هذه الاكتشافات أن عرف المفكرون حقائق جديدة ، منها مدى تأثر الشعوب بالظروف الطبيعية والنظم الاجتماعية وهذا يؤدى إلى اختلافها ، وأيضاً من نتائج تلك الاكتشافات تقدم الصناعة البحرية بسبب نشاط التجارة وبالتالى اتصلت الشعوب وانتشرت العلوم والفنون .

ورغم هذه النتائج السعيدة ، فإن استبداد رجال الدين كان موجوداً ولا عقوبة عليه ، ولكن حدثت فضيحة كبرى سجلها رجال الدين إذ أخذ القساوسة يبيعون صكوك الغفران فى الأماكن العامة والكباريهات ، وأدت تلك الفضيحة إلى صيحة عالية من صيحات العقل ، فقد أعلن « لوثر » للناس أن أعمال رجال

الدين المخزية والحقوق التى يدعيها البابا والرهبان هى بدع وليست من المسيحية فى شىء ، ووصف ما يقومون به بديانة الكهنة المسيحيين وليست المسيحية ، ودعا المسيحيين المخلصين إلى القضاء عليهم ، وكان يستخدم فى محاربته للكهنة أسلحتهم ذاتها من جدال وسعة العلم ، وقد كتب فى هذا الأمر باللغة الألمانية واللغة اللاتينية فى نفس الوقت . وانتشر مذهب « لوثر » فى جميع أنحاء أوربا ، وقامت حروب بين الأمراء الذين يرغبون فى الاستقلال والتوسع وبين الملوك ، وأصبح مركز البابا ضعيفاً ، وأخذ مذهب « لوثر » ينتشر سراً حتى وصل إلى رؤساء الحكومات وإلى رجال الكنيسة أنفسهم . وانتشرت أيضاً مبادئ « ميكيافللى » الدينية وأصبحت عقيدة الأمراء والوزراء ورجال الدين ، وقد أفسدت تلك المبادئ الفلسفة لأنها تنادى بخداع الشعب بأفكار مزيفة ، ولأنها تحتقر حقوق الأفراد فى المساواة الطبيعية التى هى أساس الأخلاق . فهم هذه الحقيقة فريق من الفلاسفة الحقيقيين البعيدين عن الكسب المادى ، وحاولوا حمل لواء الإصلاح ، ولكنهم ارتدوا ثانية لأنهم وجدوا التعصب والخرافة والجهل مسيطرين على عقول غالبية الناس .

وظهرت الجمعيات الدينية ، وانقسم المسيحيون إلى طوائف دينية وكانت تلك الطوائف لا تسمح بحرية تفكير كاملة ، وأصبحت تلك الطوائف المتناقضة تعيش جنباً إلى جنب فى البلد الواحد ، وفى بعض الأحيان كانت تطغى إحدى الطوائف على الأخرى مما يساعد على التعصب ، ولكن انقسام المسيحيين إلى طوائف دينية يدل على وجود حرية للأفراد فى اختيار ما يتفق مع عقولهم ، وهنا تولد نوع من حرية التفكير عند المسيحيين فى أوربا .

وقام بعض المفكرين الشجعان ببحث أساس سلطة ونفوذ الملوك وتوصل كل من « لانجيه » و « نيدهام » و « هارينجتن » إلى حقائق هامة منها أن حرية الأفراد لا يمكن أن تباع ، وأنه لا يوجد أى تعاقد يربط مستقبل أمة بأسرة ملكية معينة ، وأن الملوك موظفون عند الشعب وليسوا أسياده ، وأن سلطتهم

مستمدة من الشعب وحده ولابد أن تستخدم فى خدمته فقط وللشعوب حق معاقبة وخلع الملوك .

وهناك فلاسفة آخرون أكثر إنسانية نادوا بالمعاملة بالمثل فى الحقوق والواجبات بين الشعوب والملوك ، فنادوا بضرورة وجود عقد مقدس يلزم الطرفين بالتزامات معينة ، والشعب له الحق فى خلع الملك إذا أخل بالتزامات العقد المقدس . أبعدت هذه الآراء عن الملوك نظرية الحق الطبيعى ، وأحلت مكانها فكرة الحق الوضعى . ودافع عن هذه الآراء الفقهاء واتبعهم الجمهور ثم اتخذها السياسيون أساساً للثورات وللخلافات السياسية ، مما أدى إلى قيام حركات شعبية وثورات فى الجمهوريات الإيطالية وفى إنجلترا وفرنسا .

استدعت هذه الحركة انتباه الفلاسفة وجعلتهم يبحثون فى آثار القوانين ونظم الحكم على حرية الشعوب وعلى استقلالها وعلى أشكال الحكومات ، وكانت تعد تلك الموضوعات أحد جوانب الفلسفة ، فنرى أبحاث « هوبز » و « مورس » . أما « ميكافللى » ومن اتبعه فقد تعمقوا فى فحص الحقائق التاريخية للوصول إلى القواعد التى تساعد الحاكم على التحكم فى مستقبل شعبه .

وكان من نتيجة اتصال الدول الأوربية بعضها ببعض ، سواء فى الحرب أو السلم ، ظهور الحاجة إلى وضع مبادئ يسيرون عليها فى العلاقات السلمية ووضع قواعد أخرى أثناء الحرب من شأنها أن تقلل الأضرار ، وكان اهتمامهم بالحقوق الإنسانية وبالعدالة أقل وأضعف من اهتمامهم بالغرور والطمع واستبداد الحكومات ، ولذلك نرى قواعدهم تبرر جرائم واستبداد الحكام وخاصة ما هو ضد الشعوب والأجناس الأخرى .

لم تستطع الشعوب الاستمرار فى تحمل رجال الكنيسة الذين كانوا القضاة والشراح للقواعد الأخلاقية ، وكانت أفعالهم وشروحهم تستحق السخرية لما فيها من فضائح إذ كثرت أعمال العنف والتعصب الأعمى فى هذا العصر ففيه المذابح الدينية والحروب المقدسة ، وفيه قتل ملايين من سكان العالم الجديد ، وفيه ساد

النفاق والخداع والإجرام والقتل والتعصب فى كل ربوع أوربا . ولكن رغم هذا الفسادظهر بعض العباقرة الذين واسوا الإنسانية فى محنتها وأنقذوها من الانهيار وكان أهم آثارهم تقدم العلوم وتألقها وازدهارها .

وهنا يعرض كوندرسيه تقدم العلوم فى هذا العصر ، وفيما يلى ملخص لما قاله :

١ ــ نظم استعمال الجبر وأصبح مبسطاً ، وكثر استخدامه بعد اختراع حساب اللوغارتمات ، فسهل تطبيق الحساب واختصرت عملياته المعقدة .

٢ ــ أدى هذا إلى اعتماد كل العلوم على الأرقام والحساب ، وبذلك أصبحت أكثر دقة ووضوحاً .

٣ ــ اخترع « جاليليو » قانون سقوط الأجسام ، واكتشف أيضاً عدسات مقربة ، وعندما استخدمها فى الفلك وصل إلى نتائج باهرة فقد برهن على وجود كوكب « ڤينوس » وكذلك اكتشف الأقمار الأربعة التى تحيط بالكوكب « چوبيتر » ، واكتشف أيضاً وجود بقع على قرص الشمس (الكلف الشمسى) .

٤ ــ توصل « كوپرنيجوس » إلى الكشف عن النظام الحقيقى للعالم وبذلك هدم فرض « بطليموس » لنظام العالم ، وكان فرضاً معقداً يدعو للسخرية .

٥ ــ توصل « كيپلر » إلى اكتشاف طريق سير الكواكب والقوانين التى تخضع لها .

٦ ــ تقدم فن الجراحة وأصبح غير منفصل عن الطب .

٧ ــ حدث تقدم بسيط فى الكيمياء والتاريخ الطبيعى ، ولكن لا تزال توجد فيها بعض الأفكار القديمة والخيالات .

ثم ينتقل إلى الكلام عن تقدم الفنون والتعليم ويمكن تلخيص ذلك فيما يأتى :

١ ــ تقدمت فنون الشعر الحماسى والرسم والنحت إلى درجة من الكمال لم يصل إليها أحد من القدماء .

٢ ــ تقدم « كورنين » فى فرنسا بفن الدراما إلى درجة راقية .

٣ — تقدمت اللغة الإيطالية وكملت ، وسارت فى طريقها اللغات الأخرى .

٤ — ظهرت روح النقد وسيطرت على التفكير ، فأصبح من حق القارئ أن يحكم على ما يقرأه للقدماء أو للمحدثين ، وهكذا أصبح الاطلاع مفيداً حقاً ، وتلك الروح هى أول هجمات العقل على استبداد الملوك ورجال الدين وهى من القوة بحيث تهزم جيوشهم مهما زادت عدداً وعتاداً .

٥ — قل استعمال اللغة اللاتينية فى العلوم والفلسفة والفقه والتاريخ ، وحل محلها بالتدريج اللغات القومية فى كل أمة ، وقد ساعد ذلك على تقدم العقل الإنسانى ، وذلك لأن العلوم أصبحت أكثر انتشاراً ، لأن الكتاب الواحد فى بلد ما أصبح يقرأه عدد كبير ، ولكن أدى هذا العامل نفسه إلى أن العلماء وهم أقلية فى كل أوربا لم يستطيعو قراءة كل الكتب حيث أصبح لكل كتاب لغة خاصة ، بينما قبل ذلك كان هناك لغة واحدة للمؤلفات العلمية فى كل أوربا وهى اللغة اللاتينية . ولم يكن فى الإمكان جعل اللغة اللاتينية لغة عامة لكل أوربا وذلك لأنها تكتب بصورة واحدة وتنطق باهجات مختلفة وتلك اللهجات المختلفة هى أساس اللغات القومية الأوربية .

٦ — كان التعليم قاصراً لمدة طويلة من الزمن على الكنائس والأروقة ، حتى الجامعات كان يرأسها الكهنة . ولكن بعد ذلك أصبح رجال الدين يسيطرون على التعليم العام والابتدائى الذى يدخله كل من يرغب فى التعليم ، أما الفقه والطب والتعليم العالى فقد استقلت عن رجال الدين ، ولكن كان يدخلها أفراد تشبعوا بتعاليم الكهنة فى التعليم العام . وحتى فى البلاد التى ترك فيها التعليم العام لإشراف الحكومات فإن تأثير رجال الدين لم ينقطع ، وظهر تأثير آخر وهو إخضاع العقول للمسلمات السياسية والأفكار السابقة والتعصب .

كانت هذه كلها عقبات فى سبيل تقدم التعليم العام ولذلك كان التعليم يسير بطيئاً . أما الفلسفة فقد تقهقرت إلى الوراء وذلك لأنها فى حقيقتها تهاجم مباشرة الخرافات السياسية التى يسير عليها الملوك والنبلاء .

ونلاحظ أن العلوم فى تقدمها تختلف من دولة لأخرى وذلك تبعاً لاختلاف الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية ومدى تماسك الشعوب ووضعها الجغرافى وعدد الأفراد الممتازين فى كل دولة .

وينتقل كوندرسيه بعد تحليله للتقدم الذى حدث فى هذا العصر فى العلوم والفنون والآداب والتعليم والفلسفة إلى الكلام عن الاضطهاد الذى تعرض له المدافعون عن الحقيقة سواء أكانوا من العلماء أو الفلاسفة أو رجال السياسة ، ويضرب أمثلة لهذا الاضطهاد منها ما قاساه « جاليليو » من اضطهاد البابا له فى القرن السابع عشر لقوله إن الأرض تدور .

يلاحظ كوندرسيه أن هناك ثلاثة مفكرين كبار ظهروا فى فترة الانتقال من هذه المرحلة إلى المرحلة القادمة وهم « بيكون » و« جاليليو » و « ديكارت » .

أولاً — بيكون :

اكتشف المنهج الصحيح لدراسة الطبيعة ومعرفة أسرارها ، ويقوم هذا المنهج على ثلاثة أسس هى الملاحظة والتجربة والإحصاء . ونادى بيكون بضرورة إبعاد الأفكار والمعتقدات السابقة عن عقولنا عند دراسة أى مشكلة فلسفية ، إذ يجب عدم قبول أى فكرة مهما كانت بسيطة إلا بعد التأكد من صحتها . ويأخذ كوندرسيه على بيكون أنه لم يطبق تلك المبادئ على الموضوعات العلمية وإنما قصرها على المشكلات الفلسفية .

ثانياً — جاليليو :

وصل إلى اكتشافات مفيدة ، وحدد الطرق الموصلة للكشف عن قوانين الطبيعة ، وكون أول مدرسة للعلوم ترمى إلى إبعاد تأثير الخرافات والأفكار السابقة والنفوذ السياسى عن التفكير العلمى ، ولم يعترف إلا بالتجربة والحساب كمنهج للتفكير ، ويقرر « جاليليو » أن منهجه لا يستخدم إلا فى العلوم الرياضية والطبيعية ، ولا نستطيع تطبيقه فى الفلسفة بفروعها .

ثالثاً – ديكارت :

اشتهر بعبقريته فى الرياضة ولذلك تخصص فى العلوم الرياضية ونبغ فيها . ويلاحظ كوندرسيه أن منهجه يستخدم العلوم الرياضية فى جميع موضوعات التفكير الإنسانى ومنها الله والإنسان والوجود . اكتشف فرعاً جديداً فى الرياضة هو الهندسة التحليلية . ويقرر كوندرسيه أن فلسفة « ديكارت » رغم أنها أضعف من طريقة « جاليليو » وأقل حكمة من فلسفة « بيكون » قد ساعدت على تقدم الجنس البشرى بصورة قوية ، إذ حركت العقول وجعلت الناس لا يعترفون إلا بعقلهم ، وقد لعبت حماسة « ديكارت » فى عرض آرائه دوراً فعالاً فى جذب المؤيدين لفلسفته .

لا يعد العقل الإنسانى حتى ذلك الوقت حراً تماماً ، وإنما فى طريق الحرية بفضل هؤلاء الذين هاجموا أعداء التقدم وبالتالى حطموا القيود التى فرضت على العقل (١)

المرحلة التاسعة : منذ ديكارت حتى قيام النظام الجمهورى فى فرنسا :

قابل العقل فى تقدمه عقبات كثيرة واستطاع فى هذا العصر تحطيم معظمها ، وأهم تلك العقبات الخرافة والاستبداد ، ولقد زاد فى ذلك العصر الاستبداد الملكى بصورة ملحوظة لم توجد فى الأجيال السابقة ، وأدى ذلك بطريق غير مباشر إلى تقدم العقل الإنسانى . فمثلاً عندما لا يريد الحاكم المستبد بجانبه أية سلطة فإنه يعمل على إلغاء أو إضعاف امتيازات رجال الدين والنبلاء عن طريق المساواة بين الجميع فى الخضوع للقوانين ، وهكذا تظهر قوانين جديدة تقوم على أساس المساواة بين الجميع ، ورغم أن الدافع لهذه القوانين هو الاستبداد المطلق فقد استفادت منها الشعوب . وكثيراً ما كانت المصلحة الشخصية لحاكم مستبد تدفعه إلى العمل على تقدم الصناعة والتعليم بغرض زيادة ثروة الدولة ، وذلك يؤدى

---

(١) المرجع السابق من ص ١١٦ إلى ص ١٤٤ .

بطريقة غير مقصودة إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة .

أصبحت التقاليد والعادات أكثر لطفاً مما سبق ، ويرجع كوندرسيه تلك الظاهرة إلى عوامل كثيرة أهمها ضعف سيطرة الأفكار الشعبية وانتشار روح التجارة والصناعة وظهور أفكار فلسفية جديدة عن الإنسانية وأخيراً التقدم العام البطىء للعلوم . كان التعصب الدينى موجوداً فى ذلك العصر ولكنه كان أقل همجية وقسوة مما سبق .

توصل المفكرون بعد أخطاء كثيرة وآراء غامضة إلى تحديد حقوق الإنسان وهى تدور حول الحقيقة القائلة بأن الإنسان كائن عاقل قادر على تكوين أحكام عقلية وعلى الوصول إلى أفكار أخلاقية ، ورأى هؤلاء المفكرون أنه لضمان تحقيق حقوق الانسان والمحافظة عليها يجب على الشعوب اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق تلك الأغراض ، وقد أدى الاعتماد على الشعوب فى اختيار تلك الوسائل إلى ظهور مبدأ « الخضوع لرأى الأغلبية » ، وقد ترتب على هذا المبدأ اختفاء فكرة التعاقد بين الشعب والملك ، تلك الفكرة التى سيطرت على العقول فى الأزمنة السابقة . ولكن كوندرسيه يعارض القائلين بأن الأغلبية لا تخطئ ، إذ يرى أنه من الممكن للأغلبية أن تخطئ فى معالجة بعض الموضوعات ، ولكنه يرى أن تلك المبادئ الجديدة هى أقل فساداً من فكرة التعاقد بين الشعب والحاكم ولكنها فى الوقت نفسه ليست أقل سخافة ، وقد نادى بتلك المبادئ كل من « سدنى » و « لوك » ، ثم عالجها « روسو » بدقة أكثر فكان لها من القوة والانتشار شأن كبير ، وبين « روسو » أنه لا تعارض بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة ، وحدد معنى الحرية بأنها احترام الإرادة العامة للشعب .

وفى تلك المرحلة ظهرت الحاجة إلى بحث موضوع الثروة والموارد والحاجات وكيفية تحقيق التوازن بين الموارد والحاجات ، ونظراً لعدم فهم الشعوب لتلك الموضوعات الجديدة ، فقد انتهزت الحكومات والطبقات القوية الفرصة وحققت مطامعها وجشعها على حساب الشعوب الفقيرة ، ولكن ظهر أحد أتباع « ديكارت»

وهو « جون دى ويت » الذى بين أن الاقتصاد السياسى هو العلم المتخصص فى دراسة تلك الموضوعات ، ونادى بضرورة إخضاع ذلك العلم إلى دقة الحساب ومبادئ الفلسفة شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى، ولكن لم يحقق ذلك الرأى إلا قليلاً من التقدم . واستمر غموض تلك الموضوعات إلى أن وضع الاقتصاديون الفرنسيون ومعهم « ستيورت مل » و « آدم سميث » أسساً واضحة لهذا العلم الحديث ، وقد نتج عن ذلك تقدم ملحوظ فى تحديد موضوعات ومناهج وأغراض ذلك العلم .

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن نظرية « لوك » ، فى المعرفة ، فيرى أن « لوك » هو أول من حدد أسس التفكير الإنسانى وطبيعة الحقائق التى يمكن للإنسان معرفتها ، ويمدح هذا الفيلسوف فى أكثر من مرة ويلخص نظريته فى المعرفة بأنه نادى بتحليل الأفكار الإنسانية إلى أصولها البسيطة . إذ أن كل فكرة مركبة تحوى بعض الأفكار البسيطة ، وترجع كل فكرة بسيطة إلى ما تتلقاه الحواس من إحساسات ، ويرى « لوك » أن الكلمات والعبارات التى لا ترمز إلى أفكار واضحة والتى لا يمكن تحليلها إلى أصولها البسيطة يجب تجنبها لأنها أساس معظم أخطائنا . وتبنى معظم الفلاسفة هذا المنهج وطبقوه فى العلوم والسياسة والاقتصاد والأخلاق ، وترتب على ذلك أن أصبحت تلك المعارف قائمة على حقائق واضحة وبراهين يقينية ، واستبعدت تماماً الأفكار المشكوك فيها ، ويسمى كوندرسيه هذا المنهج « الميتافيزيقا » ويرى أنها وضعت حاجزاً يمنع الإنسان من الوقوع فى الأخطاء القديمة ، وهى خطوة خيِّرة فى الفلسفة ساعدت على تقدم الإنسان . ولم يهتم كثيراً بنظرية « ديكارت » فى المعرفة لأنها لا تقدم لنا تحليلاً واضحاً مثل الذى قدمه « لوك » .

وظهر فى هذا العصر فى ألمانيا فيلسوف جديد ذو عبقرية عميقة وخيال خصب هو « ليبنتز » الذى وضع مذهباً فلسفياً جديداً يتلخص فى أن العالم يتكون من ذرات بسيطة أهم خصائصها الإدراك والنزوع ، ولقد قسمها إلى ثلاث

طوائف تختلف فى درجة الإدراك ، فمثلاً الفرق بين ذرات الإنسان وذرات النبات يكمن فى الدرجة لا فى النوع والحقيقة ، وتخضع هذه الذرات لتناسق أزلى . ولقد اقتنع بتلك الفلسفة عدد من المفكرين الإنجليز الذين كونوا مدرسة للدفاع عن مذهب « ليبنتز » ، ولكنهم لم يكونوا فى عمق ومهارة وعبقرية أستاذهم وتعرضوا لكثير من التفاصيل وجاءوا بكثير من السخافات .

ساعد انتشار الفلسفة وتقدمها على هدم الأفكار الشعبية التى آمنت بها الشعوب زمناً طويلاً ، فقد نادت الفلسفة بضرورة إخضاع جميع الأفكار للعقل الخالص وحده ، وبهذا اختفت الخرافات والأفكار الشعبية المتوارثة من عقول أفراد الشعب بعد اختفائها من عقول الفلاسفة ، وتكونت فى أوربا جمعيات وظيفتها محاربة الخرافات والأفكار الشعبية فى الكنائس والمدارس والحكومات ، ولكنها لم تهتم كثيراً بالكشف عن حقائق جديدة ، ومن أهم مؤسسى تلك الجمعيات « كولنز » و « بولنجروك » فى إنجلترا و « فونتنل » و « ڤولتير » و « مونتسكييه » فى فرنسا ، كون هؤلاء مدارس وأتباعاً كثيرين ، واستخدموا كل الوسائل لنشر الحقيقة وهدم الخرافة ، وأهم تلك الوسائل الفلسفة والعلم والعبقرية والدهاء ، فكثيراً ما كانوا يتظاهرون بصداقتهم لأعداء العقل وبأنهم لا يريدون من رجال الدين إلا تسامحاً جزئياً ولا يطلبون من الحكام إلا حرية جزئية ، وكانوا يعتمدون على الحكومة فى محاربة بدع رجال الدين ، وفى الوقت نفسه كانوا يعتمدون على رجال الدين فى محاربة استبداد الحكومات ، وأخذوا يتظاهرون بأن أغراضهم بسيطة تافهة وهم فى الحقيقة يهدمون الاستبداد والبدع الدينية من أساسها ، وكانوا ينادون بحرية الرأى أى حرية الكتابة على أنها حق طبيعى للإنسان فيه خلاص الجنس البشرى من كل جرائم التعصب والاستبداد ، وكان لهذه الفلسفة أعداء وأتباع فى نفس الوقت من الملوك والكهنة ، وكان يعرف رواد تلك الفلسفة كيف يهربون من انتقام الملوك وبطش رجال الدين ، وكثيراً ما كنا نرى حكومة معينة تكافئهم بيد وتوقع باليد الأخرى قرارات اتهامهم .

و بالتدريج أصبحت مبادئ حرية العقل والرأى هى عقيدة الطبقة المتعلمة ، وكان يصرح بعضهم بها علناً ويخفيها البعض الآخر عند ما تتعارض مع المصلحة الخاصة

ومن النتائج المتعددة التى ترتبت على تلك الفلسفة ظهور جماعة من الاقتصاديين الفرنسيين (الفيزوكرات) الذين نادوا بمبدأ الحرية الاقتصادية وبتشجيع التجارة والصناعة بالمساواة والتوزيع العادل فى فرض الضرائب التى كانت الشعوب تئن من سوء توزيعها ، وبالانسجام والتناسق بين جميع الطبقات وجميع الشعوب واحترام الحقوق ، أى كانت تنادى بالإخاء بين شعوب الجنس البشرى . وكان نجاح علماء الاقتصاد فى نشر تلك المبادئ البسيطة الخلابة أقل وأبطأ من نجاح الفلاسفة ، وذلك لأن الاقتصاديين كانوا يحاربون أفكاراً شعبية وأخطاء راسخة فى العقول منذ أجيال طويلة ، ولهذا لم يجمعوا حولهم إلا القليل من الأتباع ، ولقد اهتموا بمبادئهم الاقتصادية وتمسكوا بها رغم معارضتها للمصالح السياسية ، ورأوا أن السياسة التى توفر الرخاء لشعبها على حساب فقر وبؤس الشعوب المجاورة ، هى سياسة فاسدة ومحتالة وحقيرة .

انتشرت تلك الأفكار الجديدة فى الفلسفة والسياسة والاقتصاد العام إلى أماكن بعيدة جداً بفضل الكتب السهلة ذات المستوى المتوسط ، ولم تستطع أية قوة منع وصول الكتب والأفكار الجديدة إلى أبعد الأماكن . وكان لانتشار التعليم أكبر الأثر فى إيمان الشعوب بتلك المبادئ التى أساسها الحرية ، وتكون فى بعض البلاد رأى عام ينادى بتلك الآراء ، فنلاحظ رغبة عامة قوية بين الناس فى الحرية بجميع أنواعها التى منها حرية التفكير وحرية الكتابة وحرية التجارة وحرية الصناعة ومنع العقاب بدون محاكمة ومنع الجرائم الوحشية والرغبة فى تشريع جديد للجريمة أكثر رأفة ورحمة وسن قوانين مدنية أكثر بساطة ومطابقة للعقل والطبيعة وهدم التعصب والنفاق وحماية تقدم العلوم . وهكذا أخذت الشعوب تؤمن بالحرية بالتدريج .

وأخذ فلاسفة الأمم المختلفة يدافعون فى مؤلفاتهم عن مصالح الإنسانية كلها

بدون تفرقة بين الأمم والأجناس والأديان ، وكانوا رغم اختلاف مدارسهم متحدين فى محاربة الاستبداد والتعصب داخل أوطانهم وخارجها ، وهب فلاسفة إنجلترا وفرنسا يحاربون سياسة القتل والسلب التى ترتكب على أراضى أمريكا وأفريقيا وآسيا ، وقرروا أن السود إخوان للبيض وأعضاء فى الجنس البشرى فى الوقت الذى كان فيه الملوك الأغبياء يحتقرون السود ولا يعترفون بانتمائهم للجنس البشرى .

ولقد ظهر مذهب فلسفى جديد وجه الضربة الأخيرة للخرافات واستبداد الملوك وهو مذهب « رقى الإنسان اللانهائى » الذى نادى به فى أول الأمر كل من « ترجو » و « پريس » و « پريستلى » .

وإذا تأملنا الحالة العقلية للشعوب بعد انتشار الفلسفات السابقة واستمرار استبداد الحكومات يسهل علينا التنبؤ بثورات كثيرة مؤكدة الحدوث ، ولا يمكن لتلك الثورات أن تتحقق إلا عن طريق إحدى عمليتين : إما أن يثور الشعب ويحقق بنفسه المبادئ الإنسانية التى آمن بها وهذه ثورات عنيفة سريعة ، وإما عن طريق قيام الحكومات بتنظيم قوانينها وفقاً للمبادئ الإنسانية ، وتلك ثورات هادئة بطيئة ، وبينما يتطلب الطريق الأول بعض الآلام والتضحيات المؤقتة من الشعوب يجنبهم الطريق الثانى تلك الآلام والتضحيات . ولقد اضطرت الشعوب بسبب فساد الحكومات إلى اختيار الطريق الأول أى الانتصار السريع للعقل والحرية . فقد كانت الحكومة الإنجليزية تعتقد أن الله خلق أمريكا وآسيا وأفريقيا لإشباع ملذات سكان لندن ، فأمرت نواب الشعب الإنجليزى الخاضعين لسيطرتها بالموافقة على استعمار تلك البلاد وإخضاع أمريكا لضرائب باهظة رغم إرادة شعبها ، ولكن الشعب الأمريكى اقتنع أن الظلم قد تجاوز حدوده فقام بثورة عارمة طرد فيها الإنجليز وأعلن الاستقلال ، وهكذا نرى فى ذلك العصر ولأول مرة شعباً كبيراً يقوم بثورة عظيمة يحقق عن طريقها الاستقلال ، وقد كون جمهورية فيدرالية بسبب موقعه الجغرافى وحالته السياسية القديمة ، وكانت تلك الجمهورية تحوى فى ثناياها ثلاثة عشر دستوراً جمهورياً ،

ونرى فى مواد هذه الدساتير ما يرجع لتقدم العلوم السياسية فيقر الحقوق الطبيعية للإنسان ، وما يرجع لتأثير الأفكار الشعبية والأخطاء القديمة . وقد حققت الجمهوريات الأمريكية فكرة تكوين هيئة لإصدار ووضع الدساتير ذاتها على أن تكون هذه الهيئة منفصلة ومستقلة عن الهيئة الخاصة بإصدار القوانين . وانتشرت أنباء الثورة الأمريكية وما حققته من مبادئ إنسانية فى الأماكن البعيدة من قرى وضياع ، واندهش الأهالى عند ما عرفوا أن لهم حقوقاً وأن أناساً تجرأوا وطالبوا بهذه الحقوق ونالوها . وبينما أخذت أنباء الثورة الأمريكية تنتشر بين الشعوب فى أوربا كانت حكومات أوربا غافلة عما حولها . وكانت فرنسا أكثر الأمم قابلية للتأثير بتلك الأنباء بسبب تلهف أصدقاء الإنسانية فيها للقيام بثورة مماثلة وبسبب سوء وإهمال وفساد الحكومات الفرنسية ، وساعدت كل هذه العوامل على سرعة ظهور الثورة الفرنسية . وإذا قارنا بين الثورتين نجد أن الثورة الفرنسية كانت أكثر شمولاً وأقل هدوءاً من الثورة الأمريكية ، وكان الحمل الملقى على الثورة الفرنسية أثقل مما ألقى على عاتق الثورة الأمريكية ، فلم تفعل الثورة الأمريكية إلا تأسيس سلطات جديدة مستقلة عن إنجلترا وكانت راضية عن القوانين المدنية والجنائية التى أخذوها عن الإنجليز ولذلك لم يغيروها ، وبعد أن استقلوا عن إنجلترا اتخذوا منها حليفة ، وهكذا لم تؤثر الثورة الأمريكية فى الشعب والعلاقات التى بين أفراده . أما الثورة الفرنسية فهى مختلفة فى كثير من النواحى ، فقد قامت على استبداد الملوك وعدم المساواة السياسية فى الدستور ، وغرور النبلاء والتعصب الدينى وأهوال الإقطاع ، وهكذا غيرت كل العلاقات الاجتماعية الموجودة فى المجتمع ، وسيطرت على اقتصاد المجتمع كله ، ومن مظاهر الاختلاف أيضاً أن مبادئ الدستور الفرنسى كانت أكثر صفاء ودقة وعموماً من المبادئ الأمريكية .

انتشرت مبادىء الثورة الفرنسية فى أوربا بالتدريج ، وذلك لأن شعوب أوربا كانت خاضعة لاستبداد الحكام وتعصب رجال الدين ، ولأول مرة تجرأ الأفراد

أثناء الثورة الفرنسية ونادوا بجعل السيادة للشعب وبقيام الشعب بسن القوانين التي تحدد الحقوق والحريات ، وهكذا وصلت الإنسانية إلى حقوقها الطبيعية ، بعد أن قاست الكثير فى عصور طويلة من العبودية والاستبداد .

وفى هذا العصر تقدمت العلوم تقدماً كبيراً، ويعرض كوندرسيه تقدم العلوم والفنون والآداب بالتفصيل ويتلخص ما ذكره فيما يلى :

١ ـــ أدى تطبيق الجبر على الهندسة إلى كشف كثير من النظريات فى هذين العلمين ، وأثبت إمكان استخدام المناهج الحسابية فى كل الموضوعات الخاصة بقياس الامتداد . وكان ديكارت قد أعلن قبل ذلك حقيقة هامة وهى ضرورة إخضاع كل الحقائق إلى دقة الحساب وتلك هى الغاية الأخيرة للعلوم ، وشجع هذا القول الفلاسفة على البحث عن الوسائل المؤدية إلى هذا الهدف . توصل كل من « نيوتن » و « ليبنتز » لنظريات جديدة فى الحساب ، ولم ينته نجاح هذين الفيلسوفين بانتهاء عصرهما ، بل فتحا أبواباً جديدة فى الرياضيات أمام العلماء من بعدهم .

٢ ـــ كشف « هيجهين » القوانين الخاصة بحركة الأجسام فى دائرة ، وكان لهذا الكشف أثر فى وصول « نيوتن » إلى نظرية الحركة ذات الخطوط الدائرية ، وكان للنظرية أثر فى كشف « كبلر » فكرة أن الأجرام السماوية تطوف فى مسارات بيضاوية .

٣ ـــ توصل « نيوتن » إلى كشف قانون الجاذبية ، وهو قانون عام ساعد على تقدم العقل الإنسانى ، وكان للصدفة يد فى الوصول إلى ذلك القانون ، هذا بجانب عبقرية ومجهودات المفكر ، واتهم البعض « نيوتن » بأنه تأثر بمبادئ الفلسفة الإغريقية عندما أرجع كل الظواهر السماوية إلى سبب واحد عام وهو قانون الجاذبية .

٤ ـــ أكدت الاكتشافات السابقة عن الظواهر السماوية والعلوم الرياضية تقدم علم الفلك الذى كشف نجوماً جديدة، حدد بدقة موضعها وتنبأ بحركاتها .

٥ – تخلص علم الطبيعة بالتدريج من الشروح الغامضة التى قدمها « ديكارت » ، وتخلص أيضاً من السخافات المدرسية ، وأصبح علم الطبيعة قاصراً على دراسة الطبيعة عن طريق الملاحظة والتجربة ، واهتم بتطبيق الحساب فى أبحاثه ، وتوصل إلى كشف حقائق هامة أهمها :

(ا) عرف الإنسان ثقل الهواء وكيفية قياسه .

(ب) عرف الإنسان سرعة الضوء .

(حـ) عرف الإنسان أن شعاع الشمس يتكون من أشعة أخرى بسيطة لها ألوان مختلفة .

(د) توصلوا إلى تفسير ظاهرة قوس قزح ، وعرفوا وسائل إنتاج أو إخفاء ألوانه ، وخضعت تلك الوسائل للحساب .

(هـ) وصل الإنسان إلى نظريات فى الكهربا وعرف سبب الصواعق .

(و) كشف « فرانكلين » عن وسائل لتوجيه الصواعق كما يريد الإنسان .

(ز) اخترع الإنسان آلات جديدة لقياس ثقل الجو ورطوبته وحرارته .

(ح) ظهر علم جديد تحت اسم « ميتيورولوجى » أى علم تغيرات الجو الذى تخصص فى التنبؤ بالظواهر الجوية .

٦ – وينتقل كوندرسيه إلى الكلام عن مناهج العلوم فيرى أنها أصبحت نقية وكاملة ، وأصبح فن إجراء التجارب وصناعة الآلات أكثر دقة ، وقد قادت هذه المناهج العلماء للوصول إلى أدق الحقائق وإلى أعظم الاكتشافات . واستخدمت هذه المناهج الحساب والمقاييس الدقيقة جدا . ولم يبق أمام علم الطبيعة لمحاربته إلا الأفكار المسلم بها المتوارثة عن العصر المدرسى ، وكان لتلك الأفكار أثر كبير فى تأخير تقدم علم الكيمياء ، فقد تصور الإنسان أن علم الكيمياء يرمى إلى الكشف عن سر صناعة الذهب وسر خلود الإنسان ، ولقد ملئت عقول الكيميائيين بتلك الخرافات والسخافات ، ولكنهم بدأوا يتخلون عن تلك الأمور ، وكذلك بدأوا يتخلون عن الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، ويحلون محلها

كيمياء حقيقية تقوم على التجربة والملاحظة والوصول للقوانين الخاصة بتحليل الموجودات إلى عناصرها الأكثر بساطة . وبدأت الكيمياء تتقدم عن طريق هذا المنهج السليم ، وتوصلت إلى قوانين جديدة واستخدمت لغة علمية خاصة تتمثل فى اصطلاحات دقيقة للعناصر .

٧ ــ توصل العلماء إلى تصنيف الموجودات إلى ثلاثة أقسام وهى الجماد والنبات والحيوان ، ودرسوا صفاتها وطبيعتها ، وحللوا تاريخ نمو الأجسام الحية سواء بالنسبة للنبات أو للحيوان ، وعرفوا تشريح الأجسام الحية وحددوا الوظائف التى يؤديها كل عضو فى الجسم ، ووضعوا حلقات مسلسلة لا نهائية فى الطول تبدأ بالإنسان ، وتصل فى النهاية إلى كائنات عضوية بسيطة ، وعن طريق تلك المجهودات ظهر وتقدم علم جديد هو علم التاريخ الطبيعى .

٨ ــ تقدم علم التشريح الخاص بالإنسان ، ويدخل فى نطاقه أيضاً علم وظائف الأعضاء ، وقد عانى ذلك العلم الكثير من التأخير بسبب الخرافات التى تحرم تشريح ولمس جثث الموتى ، ومما زاد فى تقدم هذا العلم اكتشاف آلات أكثر دقة ووضع مناهج جديدة ، وقد لعب الميكروسكوب دوراً كبيراً فى هذا الشأن .

٩ ــ لم تتقدم الفسيولوجيا فى العصور السابقة رغم معرفة الدورة الدموية منذ زمن بعيد ، ولكنها استطاعت فى هذا العصر الوصول إلى حقائق جديدة هامة ، أهمها تحليل عصارات المعدة ومعرفة وظائفها وتحديد التغيرات التى تطرأ على الجسم البشرى طوال فترة العمر ، وتوصل « هالر » إلى معرفة الأجزاء الخاصة بالإحساس وما يترتب على الانفعال من تغيرات .

١٠ ــ تقدمت الفنون كنتيجة لتقدم العلوم ، ومن أمثلة ذلك تقدم الفنون الميكانيكية الذى ترتب على اختراع الآلات ، وترجع الآلات بدورها إلى تقدم العلوم الطبيعية والرياضية ، وكذلك اقتبس فن المعمار الكثير من مبادئ علم التوازن ومن نظرية السوائل ، وقد توصل عن طريق تلك المبادئ إلى بناء قباب بصور أكثر سهولة وبدون إضعاف صلابة البناء ، وعرفوا فن استخدام اندفاع

المياه وحساب مقاومة الماء بالأرقام مما ساعدهم على استخدام القنوات بنجاح ومهارة ، وكان لتقدم الكيمياء وعلم النبات والتاريخ الطبيعى أثر عميق فى تقدم الفنون الاقتصادية وزراعة الخضروات وفن التغذية وفن حفظ الحيوانات المستأنسة وتحسين الأنواع ، وأخيراً حسن استغلال الموارد الطبيعية . ومن الفنون التى ظهرت لأول مرة فن الجراحة وفن الصيدلة ، ويعتبر الطب من الناحية العملية فناً ، وقد تقدم هذا الفن وتخلص من النظريات الخاطئة . وهكذا أخذت العلوم تقدم النظريات التى يترتب على تطبيقها تقدم الفنون ورقيها . ويرى كوندرسيه أن الرأى الذى ينادى بعدم فائدة النظريات والفنون البسيطة لا يدل إلا على جهل القائلين به وذلك لأننا عن طريق النظريات سنصل بعد إجراء التجارب إلى القوانين الصحيحة ، والفنون البسيطة قد ترتقى عن طرق تقدم العلوم وتصبح فنوناً مفيدة .

ويشرح كوندرسيه بالتفصيل الاتصالات التى حدثت بين العلوم ، ويبين كيف أدت تلك الاتصالات إلى تقدم العلوم والفنون فى تلك المرحلة ، فيقول إن العلوم استفادت كثيراً من تطبيق الحساب ، وتدين العلوم للميكانيكا بالكثير حيث قدمت الميكانيكا آلات فى منتهى الدقة مما ساعد على تقدم العلوم ، كذلك قدم التاريخ الطبيعى للكيمياء كثيراً من المبادئ والمعلومات ، ويضيف إلى ذلك الفوائد الجمة التى قدمها حساب الاحتمالات للفنون والعلوم ، فقد ساعد ذلك العلم على تحديد درجات اليقين التى نأمل فى الوصول إليها ، وبين أن الكثير من موضوعات العلوم تعتمد فى استمرارها وتقدمها على حساب الاحتمالات ، ومن أمثلة ذلك الادخار والتأمين بكل أنواعهما .

١١ — وأخيراً يعرض كوندرسيه تقدم الفنون الجميلة والآداب فى ذلك العصر ، فقد تقدمت الموسيقى وأصبحت فناً راقياً يعتمد على الحساب فى قياس اهتزازات الأجسام الرنانة ، أما فنون الرسم التى ازدهرت فى إيطاليا سابقاً فقد تقدمت فى فرنسا وغيرها بصورة أقوى مما كانت عليه فى إيطاليا ، وظهر هذا

التقدم فى فرنسا بعد فترة طويلة من العقم بسبب مصادفة عدم وجود عباقرة فى ذلك الوقت . وينتقل إلى الآداب فيرى أنها تقدمت فى فرنسا بصورة واضحة إذ ازدهر فن التراچيديا على أيدى كل من « كوريني » و « ڤولتير » و « راسين » ووصل فن الكوميديا على يد « موليير » إلى درجة من الرقى لم تصل إليها أية دولة أخرى ، وكان الحال كذلك بالنسبة لفن الشعر ، فإن الذوق الجميل الذى وجد فى شعر « سوفوكل » و « ڤرچيل » وجد مثله فى مؤلفات « بوب » و « ڤولتير ».

أصلحت اللغة الفرنسية وتحسنت بحيث أصبحت جديرة بأن تكون اللغة العامة لأوربا ، أما اللغتان الإنجليزية والألمانية فلم يصلا إلى مرحلة النضج إلا منذ نهاية القرن الثامن عشر .

تقدم فن التعليم ببطء لتأثره بالمعتقدات المنقولة عن العصر المدرسى ، ولكن انتشار العلوم جعل الناس يبحثون فى القواميس والصحف والكتب عن المعلومات التى يحتاجون إليها إذ لم يجدوا ما يشبع حب استطلاعهم داخل جدران المدرسة التى كانت تقدم نظريات فلسفية عقيمة ومؤلفات رجال الدين وما فيها من دعاية ، وهكذا انتشرت العلوم عن طريق الكتب بين متوسطى التعليم .

وبعد هذا العرض لتقدم العلوم والفنون والآداب يذكر كوندرسيه ملاحظة هامة وهى أن تقدم الفلسفة والعلوم قد أدى إلى تقدم الفنون والآداب ، وتقدم الآداب يؤدى بدوره إلى جعل دراسة الفلسفة أكثر شيوعاً ودراسة العلوم أكثر وضوحاً ، وهكذا يتبادل كل من الفلسفة والعلوم والفنون والآداب المعونة من الآخر ، بل إن كلاً منهم يعتمد على الآخر ، وقد تم ذلك رغم جهود الجهلاء والحمقى التى بذلت ولا تزال تبذل لبث الفرقة والعداء بين فروع المعرفة . ويظهر لنا مما سبق أن فروع المعرفة وجميع العمليات العقلية تتكامل وتتعاون رغم ما يوجد بينها من اختلافات فى الموضوع والمنهج ، وتتحد كذلك فى غرض واحد هو الوصول إلى تحقيق تقدم العقل الإنسانى . ويؤكد كوندرسيه استحالة تقهقر أى فرع من المعرفة خطوة واحدة إلى الوراء ، لأن التقدم حتمى ويسير دائماً إلى

الأمام، ولكن قد تختلف سرعة سيره ، ولذلك لا يمكن للجنس البشرى أن يعود ثانياً لهمجية وفساد الماضى ، ورغم أن التقدم الذى حدث لم يشغل إلا جزءاً بسيطاً من العالم فإنه سينتشر وسيعم كل الجنس البشرى فى المستقبل . ويقرر أنه يجب ألا ننسى أن هناك أقطاراً واسعة تعيش فى عبودية وجهل وهمجية ، ولكن سيصل إليها التقدم فى المستقبل القريب عن طريق تقدم العلوم وثورات الشعوب ، ويحذرنا كوندرسيه من المعلومات المتداولة عن الشعوب المتخلفة لأنها مأخوذة من المسافرين وهؤلاء دائماً غير دقيقين لأنهم يلاحظون الظواهر بسرعة وبغير إمعان ويرونها بمنظار الأفكار الشعبية التى تسيطر عليهم ، وغالباً يؤثر فى أقوالهم الغرور القومى والهزل والمصلحة الشخصية .

وهنا ينتهى تحليله عن تطور الإنسانية وتقدم العلوم حتى اللحظة التى عاش فيها كوندرسيه ويبدأ فى تحديد معالم تقدم الإنسان فى المستقبل، أى فى العصور التالية للقرن الثامن عشر (١) .

المرحلة العاشرة : تقدم العقل الإنسانى فى المستقبل (ما بعد القرن الثامن عشر الميلادى) :

يبدأ كدرسيه كلامه فى هذه المرحلة بمحاولة إثبات إمكان التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل بالنسبة للعقل الإنسانى والجنس البشرى ، فيقول إن التنبؤ بالظواهر الطبيعية فى المستقبل يكون مؤكداً تقريباً إذا عرفنا القوانين التى تخضع لها تلك الظواهر ، وتكون نسبة احتمال صحة التنبؤ كبيرة إذا كنا نجهل تلك القوانين ولكن لدينا خبرة عن ماضى تلك الظواهر. وما دام الأمر كذلك بالنسبة لظواهر الطبيعة فما الذى يمنع إمكان التنبؤ بالظواهر الإنسانية المستقبلة ؟ إن الأساس الذى يقوم عليه التنبؤ بالظواهر الطبيعية يمكن أن يوجد ويطبق بالنسبة للظواهر الإنسانية ، ويتلخص الأساس فى أن ظواهر الطبيعة خاضعة لقوانين عرف

(١) Codorcet : Esquisse d'un Tableau Historique des Progrès de l'Esprit Humain, Paris 1933, pp. 145 - 202.

الإنسان بعضها ، ولم يعرف البعض الآخر ، وأن تلك القوانين ثابتة وضرورية ، ذلك الأساس نفسه موجود بالنسبة للقدرات العقلية والأخلاقية للإنسان ، فهناك قوانين دقيقة تخضع لها تلك الظواهر الإنسانية ، ولتلك القوانين من الدقة والتحليل الكلى ما يوازى دقة قوانين الطبيعة . وهكذا يثبت إمكان التنبؤ بمستقبل الجنس البشرى .

وعند عرضه للمستقبل نلاحظ سيطرة نزعته التفاؤلية على تنبؤاته ولذلك رسم صورة جميلة لمستقبل الإنسان ، وتتلخص أمنياته التى ستتحقق فى المستقبل فى ثلاثة موضوعات هى :

أولاً : قيام المساواة بين الأمم .

ثانياً :تقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد .

ثالثاً : الكمال الحقيقى والواقعى للإنسان .

ثم يبدأ فى شرح هذه الموضوعات الثلاثة بشىء من التفصيل ، وفيما يلى ما ذكره .

قيام المساواة بين الأمم :

إذا لاحظنا الحالة الراهنة للشعوب (فى القرن الثامن عشر) نرى الأوربيين يهاجرون للأراضى التى غزوها ، ويحتكرون التجارة فى أفريقيا وآسيا ، ويستخدمون القسوة والخيانة والغدر والتعصب فى معاملة الأفراد ذوى اللون المغاير للونهم وذوى العقيدة المغايرة لعقيدتهم ، وقد ترتب على استبداد الملوك وتعصب رجال الكنيسة أن ضعفت عواطف الكرم واحترام الغير بين الأوربيين ، تلك العواطف التى دعت إليها العلوم السياسية والتجارية فى أول مراحلها . ورغم هذا الظلام الدامس الذى يحيط بشعوب أفريقيا وآسيا فإن كوندرسيه يتفاءل ويتنبأ بأن لحظة الحرية قادمة حتماً ، وهناك أدلة تبشر بذلك فقد قام فى بريطانيا بعض أصدقاء الإنسانية بالدعوة للحرية والمساواة بين الشعوب ، واضطرت الحكومة البريطانية الميكيافيلية إلى احترام الرأى العام وأدخلت بعض التعديلات على الدستور

الإنجليزى المستبد . وظهرت فى فرنسا بعض مشروعات تشبه الاتجاه الإنسانى الذى ظهر فى إنجلترا .

وبدأ الاحتكار التجارى يضعف بالتدريج حيث تبين للأمم الأوربية أخيراً أن الشركات الكبيرة ما هى إلا آلات للظلم والاستبداد والسلب والسرقة ، وبدأ الأوربيون يتطلعون إلى تجارة حرة تقوم على أساس احترام استقلال الشعوب غير الأوربية ، وسوف تصل قريباً إلى تلك الشعوب مبادئ الحرية وسوف تنتشر فيها مبادئ العقل والتقدم العلمى الذى يوجد فى أوربا ، وسوف يضعف سيطرة الرهبان والكهنة على عقول أفراد الشعوب المتخلفة ، وستحل الحقائق المفيدة محل الخرافات التى تسيطر على التفكير ، وسوف تنتشر تلك الحرية إلى الأماكن البعيدة التى لا تستطيع مبادئ الحرية الوصول إليها اليوم ، وسيقوم من أبنائها من ينادى بتلك المبادئ ويتتلمذ على عباقرة أوربا . أما الشعوب البدائية التى أبعدتها قسوة مناخها عن المدنية فسوف تتقدم ببطء شديد ، وكذلك الحالة بالنسبة للشعوب المنتصرة القوية التى لا تعترف إلا بقانون القوة ، هذان النوعان من الشعوب سوف يتقدمان ببطء كبير وسيعترض سيرهما الكثير من العواقب ، وربما يتناقص عددهم بالتدريج ، وينتهى الأمر بهم إلى الانقراض .

أما شعوب الشرق فسوف تتخلص سريعاً من سيطرة البدع الدينية والجهل والفقر ، وسيكون سير تقدم تلك الشعوب أكثر سرعة وأكثر نجاحاً من تقدم الشعوب الأوربية ، وذلك لأن الشعوب الشرقية ستنقل من أوربا ثمار جهاد طويل دون أن تمر فى الطريق الطويل الملىء بالأخطار الذى مرت فيه الشعوب الأوربية .

وهكذا يشك كوندرسيه فى أنه سيبقى فى العالم أماكن لن تصل إليها المدنية والتقدم ، ويشك كذلك فى أن الاستبداد يستطيع وضع سدود لا يمكن للحقيقة اختراقها ، فسوف تستقل الشعوب جميعاً وتقوم المساواة بين الأمم ، وسيكون أساس التعامل بينها احترام استقلال كل الشعوب ، ولن نرى الاستبداد والخرافة إلا فى كتب التاريخ .

تقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد :

يلاحظ كوندرسيه أننا إذا أمعنا النظر فى تاريخ المجتمعات سنجد اختلافاً واضحاً بين الحقوق التى يخولها القانون للأفراد والممارسة العملية لتلك الحقوق ، وسنرى أيضاً اختلافاً كبيراً بين المساواة التى تقرها التنظيمات السياسية والمساواة التى توجد حقاً بين الأفراد . وكان هذا الاختلاف من الأسباب الرئيسية التى هدمت الحرية فى الجمهوريات القديمة والتى عاقت سير الديمقراطية ، ويرجع هذا الاختلاف إلى ثلاثة أسباب رئيسية . هى عدم المساواة فى الثروة وعدم المساواة فى وسائل كسب الرزق وعدم المساواة فى التعليم . ويتطلب القضاء على الاختلاف السابق التقليل من الفوارق السابقة وقيام المساواة الحقيقية بين أفراد الشعب الواحد ، ولا يجب القضاء على الفوارق الاجتماعيةبين الناس بصورة تامة لأنها ظواهر ضرورية وطبيعية ومن الخطر أو الجنون هدمها والقضاء عليها تماماً .

ولن يستطيع التفاوت الشاسع فى الثروات البقاء ، إذ سيزول سريعاً عن طريق تحقيق الحرية فى الصناعة والتجارة ، ورغم وجود عوامل كثيرة تساعد على اختلاف الثروات بين الناس إلا أنه من الممكن القضاء على التفاوت الشاسع فى الثروات ، أما السبب الثانى فقد قام رجال كثيرون بالدفاع عن مبادئ إنسانية تقلل من الاختلاف فى وسائل العيش منها تقرير مكافأة للنساء والأطفال منذ اللحظة التى يموت فيها رب الأسرة ومساعدة العمال بعد كبر السن . وهنا يجب استخدام حساب الاحتمالات حتى تعود المبادئ السابقة بالفائدة على أغلبية الشعب . ويرى كوندرسيه أن عدم تقرير تلك المبادئ السابقة يعد سبباً فى وجود منبع لا ينضب للفقر والبؤس والفساد . أما السبب الثالث وهو عدم المساواة فى التعليم ، فعن طريق اختيار موفق للعلوم وللمناهج التى تستخدم فى تدريس هذه العلوم نستطيع أن نعلم كل أفراد الشعب المعلومات الضرورية لكل فرد ، فنعلمه بعض مبادئ الاقتصاد والعمل وشئون الأسرة وإدارة الأعمال ، ونعلمه أيضاً واجباته وكيف يؤديها على أحسن وجه ، وكيف يحكم على أعماله وأعمال

غيره بتفكيره الخاص دون التأثر بأفكار الغير ، ونعلمه كيف لا يخضع خضوعاً أعمى لرؤسائه ، وكيف لا تخدعه الخرافات فينقدها بعقله وذكائه . وإذا تعلم أفراد الشعب الواحد هذه الثقافة العامة واستعملوا فيما بينهم لغة واحدة ، وأصبحوا يختارون مهنهم بحرية ، عند ذلك ستسود بينهم مساواة واقعية . ويرى كوندرسيه أن اختلاف الناس فى العلم وفى الموهبة وفى الذكاء لا يعد سداً أو فاصلا يمنع الشعوب من ممارسة الديموقراطية الحقة ، وإذا آمنوا بأن يحكمهم من هو أكثرهم علماً وعبقرية فليس عليهم الثقة العمياء فى حكامهم . إن الاختلاف الطبيعى بين القدرات العقلية يوجد فى جميع الشعوب ، وفى حالة فهمه بالصورة السابقة سيؤدى إلى خير الجميع .

تعمل تلك العوامل السابقة – المؤدية إلى المساواة بين أفراد الشعب الواحد – بصورة متداخلة متعاونة ، ويضرب مثلاً لذلك بأن المساواة فى التعليم ستؤدى إلى تكافؤ فرص العمل وهذا يؤدى بالتالى إلى إقلال التفاوت بين الثروات .

ويقرر كوندرسيه نظرية ملخصها أن التعليم إذا وجه توجيهاً سليماً سيؤدى إلى تعديل وتهذيب عدم المساواة فى القدرات العقلية بحيث لا يستغل أصحاب القدرات الممتازة متوسطى الذكاء والسذج من الأفراد .

الكمال والرقى الحقيقى للإنسان :

سيؤدى التقدم السابق الممثل فى المساواة الحقة سواء بين الأمم أو بين أفراد الأمة الواحدة إلى خير الإنسان ورقيه وكماله . وإذا فحصنا قوانين هذا التقدم يتبين لنا استحالة التقهقر أو العودة إلى الوراء خطوة واحدة ، إذ يسير التقدم إلى الأمام دائماً ، ولكن تختلف سرعته حسب اختلاف الزمان والمكان . وسيعرف العقل فى المستقبل كل أسرار الكون . ويتصور الإنسان بعد كل تقدم أنه من المستحيل حدوث أى تقدم جديد لاعتقاده أنه وصل إلى الكمال ، وهذا مجرد وهم لأن التقدم مستمر بصورة لا نهائية .

سيتخلص الإنسان فى تلك المرحلة من جميع العوائق التى تعرقل التقدم ، وسيتنبأ الإنسان بالكوارث قبل وقوعها فيستطيع تفاديها . ومن الممكن تلخيص ما ذكره كوندرسيه عن معالم كمال ورقى الإنسان فيما يأتى :

العلوم :

سترتقى العلوم التى تعتمد على الملاحظة والتجربة وخاصة علم النبات وعلم المعادن وعلم الحيوان وعلم طبقات الجو ، إذ سيحدث تقدم كبير جداً فى الوسائل التى تستخدمها تلك العلوم فى الكشف عن حقائق الكون ، هذا مع العلم أن الآلات المستخدمة فى القرن الثامن عشر قد أوصلتنا إلى الكثير من الحقائق المفيدة . أما عن العلوم التى تعتمد على التأمل العقلى وحده فى الوصول إلى اكتشافاتها فسوف تتغير صورتها ، إذ سيكثر عدد الأفراد المشتغلين بها وبذلك تتقدم عن طريق توضيح وتفسير التفاصيل ، والحقيقة أن تقدمها يعتمد بصورة رئيسية على ظهور العباقرة .

الفنون :

ستتقدم الفنون التى تعتمد على العلوم نظراً لتقدم الأخيرة ، فسوف تزداد الآلات إتقاناً مما يؤدى إلى زيادة مهارة الأفراد وسيؤدى هذا بالتالى إلى رقى ودقة المنتجات التى تصنعها تلك الآلات. وسيتم الإتقان فى المنتجات فى نفس الوقت الذى سيقل فيه المجهود والزمن اللازمان لإنتاجها . وسيصبح فى الإمكان إنتاج سلع كثيرة فى مساحة صغيرة جداً من الأرض ، وسيخترع الإنسان سلعاً جديدة تجمع بين الجودة وانخفاض الثمن وقلة المجهود . وسيعرف الإنسان كيف يختار التربة الأكثر ملاءمة فى الزراعة والنباتات الأكثر ملاءمة للتربة وهكذا تزداد كمية المحاصيل مما يشبع حاجات الأغلبية .

اللغة :

سيستخدم الإنسان لغة أكثر دقة فى التعبير عن أفكاره ، وستصبح لغة

كل أمة غنية بمفرداتها ومعانيها إذ ستزداد بدون انقطاع حقائق ومبادئ العلوم والملاحظة والتجربة والحساب ، وستؤدى الحاجة إلى اكتشاف موارد جديدة وإلى معرفة وسائل جديدة مؤدية إلى تلك الموارد ، وعن طريق تلك العملية ستزداد المعلومات والاصطلاحات الجديدة . ورغم أن تقدم وتطور القدرات الإنسانية يسيران فى حدود إطار عام لا يمكن تجاوزه ، فإن تقدم العلوم والفنون يسير بدون حدود وبدون انقطاع . وسوف تتخلص العلوم من اللغات الغامضة التى تستخدمها نظراً لأن اللغة الغامضة لها أضرار كثيرة إذ تدفع الإنسان للوقوع فى الخطأ .

نظرية الاحتمالات :

وبعد ذلك يتكلم عن حساب الاحتمالات وعن أهمية التقدم المنتظر للعلوم جميعاً إذا طبقته فى أبحاثها لأنه سيجعل لنتائج تلك العلوم ما للعلوم الرياضية من دقة ووضوح . ويكرر كوندرسيه أهمية الكم فى تقدم العلوم .

علم الاجتماع :

ستكون دراسات علم الاجتماع فى الإنسان عادات السلوك الحسن وسؤال العقل والضمير واحترام أحكامهما ، وسوف تكون أيضاً عادة العواطف الرقيقة التى تجمع بين خيرنا نحن وخير آخرين . ويتعرض كوندرسيه لمشكلة اجتماعية خطيرة هى مشكلة تزايد السكان فى العالم . فيقول إن الزيادة السكانية تسير بدرجة أسرع من زيادة وسائل العيش ، ويتنبأ بحتمية حدوث تلك المشكلة فى المستقبل ، وذلك لأن الظروف التى تمنع حدوثها غير متوفرة ، وهذه الظروف هى الإقلال المستمر فى عدد السكان وهو يشك فى حدوث ذلك ، ويرى أنه سيجىء اليوم الذى تصبح فيه تلك المشكلة سبباً دائماً للبؤس والفقر ، ولكنه يعود ويتساءل : هل على الإنسانية أن تبلغ ذلك اليوم ؟ يجيب كوندرسيه على هذا السؤال باستحالة التنبؤ (حالياً) بحدوث ذلك اليوم أو بعدم حدوثه . لأنه

يوم بعيد سيحدث فى مرحلة يكون الإنسان فيها قد وصل إلى رقى وتقدم لا يمكن تحديد معالمهما فى أيامنا هذه ، ولذلك يترك كوندرسيه هذه المشكلة لتقدم العلوم فى المستقبل وهو مقتنع أن هذا التقدم العلمى سوف يتغلب عليها ويحلها فى صالح الإنسانية .

الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة :

يعتقد الكثيرون أن المهمة الباقية لتلك العلوم الحديثة بعد وضع أسسها ووضوح مناهجها هى هدم الأخطاء والخرافات ووضع الحقائق مكانها ، ولكن كوندرسيه يرى أن هذه العلوم سوف تتقدم فى نواح كثيرة لا تخطر على بال أحد ، إذ لا يزال تحليل القدرات العقلية والأخلاقية للإنسان ناقصاً وفى حاجة إلى الكثير من الدراسة والبحث ، وعن طريق تلك الدراسة سوف تتسع وتنمو معرفة الفرد للواجبات التى تؤثر فى سلوكه سواء نحو نفسه أو نحو زملائه أو نحو المجتمع الذى يعيش فيه ، وسيصبح تأثيرها أكثر دقة وعمقاً مما وجد فى ذلك الوقت ، وسيعرف الإنسان بدقة حدود امتداد الحقوق الفردية ، وسيضع قوانين دقيقة بين المجتمعات لتطبيقها فى السلم والحرب . وسيتخذ هذا التقدم من الفن الاجتماعى أساساً له ، ويقصد بالفن الاجتماعى الدراسات الاجتماعية ، وعن طريق هذا الفن ستتحقق المساواة وستحترم الحقوق الطبيعية وستتأكد رفاهية وسلام الأمم والأفراد . ويرى كوندرسيه أن هناك عوامل كثيرة تعوق تقدم علم الأخلاق ؛ منها سوء استعمال الميول الفطرية بتوجيهها نحو الشر ، ومنها أيضاً العادات السيئة التى تدفع للجرائم ، ويرجع سبب تكوين تلك العادات السيئة إلى الجهل بالوسائل الخاصة بمقاومتها فى صورها الأولى البسيطة أو الجهل بوسائل تهذيبها وتوجيهها . وسيؤدى تقدم الأخلاق والسياسة إلى تكوين العادات التى وضعت الطبيعة نواتها فى قلوب الناس جميعاً ، ومن أمثلة ذلك مبادئ العدل النقية والإحساسات الرقيقة وحب الغير . سيتم هذا التقدم فى المستقبل القريب لأنه كما يؤدى تقدم العلوم الرياضية والطبيعية إلى تقدم الفنون العملية فإن الأمر

نفسه سيحدث بالنسبة للعلوم السياسية والأخلاقية إذ سيؤدى تقدمها إلى تقدم دوافع سلوكنا ومشاعرنا . ويرى كوندرسيه أن الملاحظات السابقة تثبت أن الخير الأخلاقى موجود فى طبيعة الإنسان ، وأنه كغيره من القدرات قابل للرقى والكمال الغير محدود ، ولقد وضعت الطبيعة فى الإنسان الحقيقة والخير والفضيلة .

ويجب الإشارة إلى مظهر هام آخر للخير العام الذى سيحققه تقدم العقل الإنسانى وهو القضاء التام على الأفكار السابقة القديمة التى تنادى بعدم المساواة بين الجنسين فى الحقوق ، وسيؤدى هذا إلى اختفاء العادات والقوانين المترتبة على تميز الرجل على المرأة ، وفى هذه الحالة سوف تزدهر وتسعد الأسرة ، وسوف يتقدم التعليم وخاصة التعليم العام الذى يعامل كلا الجنسين بكثير من المساواة .

ستؤدى العوامل السابقة إلى تحقيق حالة من التقدم تعد فى القرن الثامن عشر وهماً خيالاً ، إذ ستصبح أخلاق الأمم رقيقة وسيكون أساسها العدالة والذوق ، وليس الغرور والنفاق والتعصب الدينى ، وأن الأمم أو الشعوب التى يسيطر عليها فى القرن الثامن عشر الفساد والتعصب والجشع والحروب ستسودها مبادئ السياسة والأخلاق السليمة النابعة من العقل والفضيلة ، فسوف تختفى بينهم الحروب وكذلك الأفكار التجارية الرجعية المزيفة التى ترمى إلى استعمار الشعوب بحجة أن الأمم القوية ترغب فى تحقيق الرخاء والتقدم للأمم المتخلفة ، سيختفى كل هذا الفساد فى المستقبل ، وفى هذه المرحلة سوف تظهر تنظيمات وتشريعات ترمى إلى تحقيق الأخوة بين الشعوب . وعن طريق تقدم علم الأخلاق ستقل جرائم القتل بحيث يصبح القتلة شواذ .

الفنون الجميلة :

ستحرز تقدماً عظيماً لم يسبق له شبيه فى كل من اليونان وإيطاليا وفرنسا ، إذ ستحرر تلك الفنون من الأفكار الرجعية القديمة التى تفرض كثيراً من القيود ، وفى هذه المرحلة سيصبح الجمال أكثر عمقاً ورقياً وتأثيراً ، وستصبح العواطف أكثر حيويةً ونشاطاً ، وستصبح اللوحات والصور أكثر جمالاً وضياءً

التعليم :

ثم يتحدث كوندرسيه عن وسيلتين تؤديان إلى كمال التعليم الأولى الضرورى للجميع ، وهما استخدم المناهج الفنية وتنظيم لغة عالمية ، ويقصد بالمناهج الفنية فن جمع عدد كبير من الموضوعات أو الحقائق أو الظواهر فى وضع منظم تنظيماً منهجياً أى وجود طريقة دقيقة ترتب على أساسها الموضوعات بحيث إذا ألقينا نظرة سريعة على هذه الموضوعات يمكننا تحديد العلاقات والروابط بينها ، ويمكننا بسهولة أن نكون منها معلومات وأفكاراً واضحة ، ولا يزال هذا الفن حتى اليوم (القرن الثامن عشر) فى دور الطفولة ، ولكنه فى المستقبل سيقدم الحقائق والظواهر المتفرقة فى صورة واضحة وفى وضع وترتيب سليم ، وسيعطى الفرصة للفرد لاستنتاج النتائج العامة بسرعة ودقة . وسيؤدى استخدام هذا الفن على نطاق واسع إلى تسهيل التعليم الأولى فى كل الشعوب ، وذلك لأن التعليم الأولى يعتمد إما على ترتيب منهجى للحقائق وإما على تتابع الملاحظات والحقائق ، وكلا الأمرين من اختصاص المناهج الفنية . أما الوسيلة الثانية فيقصد بها اختراع لغة عالمية تتكون من رموز معينة تعبر إما عن موضوعات واقعية وإما عن تجمعات وأفكار بسيطة عامة موجودة عند جميع الناس بالتساوى وإما عن العلاقات العامة بين الأفكار . وإذا عرف الأفراد هذه الرموز وعرفوا القوانين الخاصة بتكوينها أو الطريقة الخاصة بالجمع بينها فإنهم سيفهمون المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة ، وستكون تلك اللغة من السهولة مثل اللغة العامة ، وستستخدم كل أمة تلك اللغة العالمية فى عرض نظريات العلوم وأسس الفنون وفى تسجيل التجارب والملاحظات والمشروعات والاكتشافات والمناهج الجديدة ، وستستخدم تلك اللغة أيضاً فى الجبر الذى سيضطر لاستعمال رموز جديدة . إن اختلاف تلك اللغة فى اصطلاحاتها العلمية عن اللغات القومية للأمم المختلفة لن يترتب عليه أى ضرر أو ارتباك ، وذلك لأننا قد لاحظنا قبل ذلك أن استعمال لهجة علمية خاصة

أدى إلى تقسيم المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة إلى طبقتين غير متساويتين فى الحقوق، وهما: طبقة تتكون من أفراد قليلين يعرفون تلك اللغة العلمية ويستخدمون العلوم وأسرارها فى إشباع مصالحهم ، أما الطبقة الثانية فتتكون من غالبية الشعب التى تجهل اللغة العلمية، وبالتالى لا تعرف العلوم وأسرارها ولذلك تخضع للطبقة الأولى . فى هذه المرحلة سوف لا تؤدى اللغة العالمية إلى ذلك الفساد والانقسام ، إذ سوف تُعلم اللغة العالمية للجميع مع العلم نفسه كما هو الحال فى الجبر ورموزه ، فسوف يعرف كل فرد ما تعبر عنه رموز اللغة العالمية ، وعن طريق تلك الرموز سيعرف الأفراد مبادئ العلم ، وسوف تسجل فى الكتب ليس فقط الحقائق التى تنشر برموز معروفة من قبل وإنما أيضاً سوف تشمل شروحاً لرموز جديدة يحتاج إليها الأفراد للوصول إلى حقائق جديدة . وسيزداد رقى وكمال تلك اللغة العالمية بدون انقطاع ، وسوف تنتشر من يوم لآخر وتعطى العقل الإنسانى القوة والدقة والمعرفة الحقيقية السهلة ، وستصل جميع العلوم إلى مرحلة من الدقة لا تقل عن دقة الرياضيات وبالتالى سيكون الخطأ مستحيلاً .

الطب :

من أهم مظاهر رقى الإنسان تقدم الطب الواقى ، وسيؤدى ذلك إلى القضاء على عاملين من أهم عوامل فساد الجسم ، وهما الفقر الشديد والغنى الزائد، فكلاهما يؤدى إلى أمراض خطيرة ، وسيترتب على تقدم الطب الواقى التغلب على الأمراض المعدية والأمراض العامة التى ترجع إما إلى المناخ القاسى أو إلى طبيعة الأعمال الشاقة أو إلى طبيعة بعض المأكولات ، وهكذا ستختفى جميع الأمراض . ويتساءل كوندرسيه : هل سيترتب على هذا التقدم زيادة عمر الإنسان بصورة لا نهائية ؟ . يجيب على هذا السؤال بأن عمر الإنسان سيطول عن المتوسط الذى وجد فى القرن الثامن عشر ، وسيزداد عمر الإنسان بدون انقطاع ولكنه لن يصل إلى مرحلة الخلود .

القدرات الجسمية والعقلية :

وأخيراً هناك مظهر آخر لكمال الجنس البشرى يجب ألا ننساه هو تقدم القدرات الجسمية عن طريق رقى الحواس والعمليات العضوية ، وسيؤدى ذلك إلى تقدم القدرات العقلية والأخلاقية ، ومن أمثلة ذلك الذكاء والذاكرة والحساسية الأخلاقية ونشاط العقل الروحى . ولكن تقدم هذه القدرات يسير إلى حدود معينة لا يمكن تجاوزها ، أى أن القدرات العقلية والجسمية لا تستطيع أن تتقدم بصورة لا نهائية .

وهكذا سيحطم العقل قيوده وسيقضى على أعداء التقدم وسيمشى بخطى ثابتة فى طريق الحقيقة والفضيلة والخير ، وسيختفى كل من الحسد والحقد والخوف والجريمة والتعصب والحرب والنفاق ، وسيعيش الإنسان فى هذه المرحلة مع زملائه فى جنة واقعية عرف العقل كيف يخلقها .

تعليق

إذا أردنا أن ننقد هذا الفيلسوف الإنسان فى تحليله لتطور الإنسانية وتقدم العقل ، يجب أن نأخذ فى الاعتبار أمرين أساسيين هما :

١ – الظروف التى أحاطت كتابه « الملخص . . . » وتتمثل فى اختفاء المؤلف لمدة طويلة تبلغ تسعة أشهر فى حجرة واحدة تشبه السجن وذلك لعدم قدرته على الخروج إلى الشارع أو المكتبات لجمع المعلومات اللازمة ، ولذلك فإن أقواله لا تخرج عن كونها استطرادات وتأملات تعتمد على الذاكرة وحدها .

٢ – سعة الموضوعات التى تكلم فيها كوندرسيه . فقد تكلم فى كل فروع المعرفة ، ولذلك يستلزم لنقد تلك الأفكار بصورة دقيقة توفر تخصصات

متعددة . هذا بالإضافة إلى أننا إذا عالجنا نظرياته بصورة كلية نجد أن نظرتنا تختلف وفق الأساس الذى نستخدمه كمقياس للنقد ومن الممكن تحديد — على الأقل — ثلاثة أسس هى : علم الاجتماع وعلم التاريخ وفلسفة التاريخ .

أما من وجهة نظر علم الاجتماع الذى نضج وازدهر فى العصور التى جاءت بعد كوندرسيه فقد نقدت آراء كوندرسيه من هذه الزاوية بشىء من التفصيل فى بحث آخر من الممكن الرجوع إليه [١] . وإذا نظرنا إلى الآراء السابقة من وجهة نظر علم التاريخ نجدها مشوهة وناقصة وغير دقيقة وذلك لأن علم التاريخ يعتمد على التسجيل الدقيق للحوادث التاريخية الخاصة بكل أمة وبكل فرع من فروع المعرفة ، ولا يقر علم التاريخ المنهج الفلسفى الإجمالى الذى اتبعه كوندرسيه . وإذا درسنا الآراء السابقة من زاوية فلسفة التاريخ نجد أنفسنا أمام نموذج كامل لهذا الفرع من المعرفة لأنها تتفق مع موضوع ومنهج فلسفة التاريخ وقد حددناهما سابقاً [٢] .

تبين لنا من العرض السابق لآراء كوندرسيه أننا أمام فيلسوف إنسان آمن بالعقل ، ودافع عن الحرية ، ومقت الاستبداد وتعصب رجال الدين ، ونادى بالمساواة بين جميع البشر رغم اختلاف ألوانهم وقومياتهم وعقائدهم ونوعهم . وقد تنبأ هذا الفيلسوف العظيم بنهاية الاستعمار الأوربى رغم انتمائه لدولة استعمارية كبيرة ، وتنبأ كذلك بالمساواة بين الأمم وبتقدم العلوم . وهكذا بعد قرنين من الزمان نجد أن الكثير من تنبؤاته أصبح حقائق إذ رحل الاستعمار عن معظم أجزاء آسيا وأفريقيا والأمريكتين ، وأنشئت هيئة الأمم المتحدة على أساس الحقوق والواجبات التى ذكرها كوندرسيه ، وكذلك وصل العلم إلى درجة عظيمة من التقدم والرقى .

---

(١) د . عاطف وصفى : نقد فلسفة التاريخ عند كوندرسيه من وجهة علم الاجتماع ، رسالة ماجستير من قسم الاجتماع بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٨ .

(٢) انظر الصفحات الآتية : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ .

الفصل الرابع

نصوص مختارة

١ ـ نظرية المعرفة :

L'homme naît avec la faculté de recevoir des sensations; d'apercevoir et de distinguer les sensations simples dont elles sont compasées; de les retenir, de les reconnaîtres, de les combiner; de comparer entre elles ces combinaisons; de saisir ce qu'elles ont de commun et ce qui les distingue; d'attacher des signes à tous ces objets, pour les recovnaître mieux, et faciliter des combinaisons nouvelles.

Cette faculté se développe en lui par l'action des choses extérieures, c'est-à-dire, par la présence de certaines sensation composées, dont la constance, soit dans leur identité soit dans les lois de leurs changements, est indépendante de lui. Elle se développe également par la communication avec des individus semblables à lui; enfin, par des moyens artificiels, que ces premiers developpements ont conduit les hommes à inventer.

يولد الإنسان ولديه ملكة تلقى الإحساسات وإدراكها وتمييز الإحساسات البسيطة التى تتركب منها والاحتفاظ بها والتعرف عليها ، وربط بعضها ببعض ومقارنة الروابط بين تلك الإحساسات ، وتحديد ما هو عام منها وما هو يميزها ووضع علامات لكل هذه الأشياء لمعرفتها بصورة أفضل ولتسهيل ظهور روابط جديدة.

تتطور هذه الملكة عنده (عند الإنسان) عن طريق فعل الأشياء الخارجية، أى بوجود إحساسات مركبة معينة يكون استمرارها ، سواء فى ذاتها أو فى القوانين الخاصة بتغيرها ، مستقلاً عن الإنسان . وتنمو تلك الملكة بصورة متساوية عن طريق وسائل مصطنعة ، قادت التطورات الأولى فى الإنسان إلى اختراعها .

Les sensations sont accompagnées de plaisir et de douleur; et l'homme a de même la faculté de transformer ces impressions momentanées en sentiments durables, doux ou pénibles; d'eprouver ces sentiments à la vue ou au souvenir des plaisirs ou des douleurs des autres êtres sensibles. Enfin, de cette faculté unie à celle de former et de combiner des idées, naissent entre lui et ses semblables, des relations d'intérêt et de devoir, auxquelles la nature même a voulu attacher la portion la plus précieuse de notre bonheur et le plus douloureux de nos maux. [1].

يصاحب الإحساسات شعورا اللذة والألم ؛ وعند الإنسان أيضاً ملكة تحويل هذه المشاعر المؤقتة إلى عواطف دائمة : حلوة أو مؤلمة ، ولديه ملكة الشعور بتلك العواطف عند رؤية أو تذكر لذات أو آلام الآخرين . وأخيراً سيتولد عن تلك الملكة عند اتحادها مع ملكة تكوين الأفكار والربط بينها علاقات منفعة وواجب بين الإنسان وأمثاله ، وقد أرادت الطبيعة ذاتها أن تلحق بتلك العلاقات أثمن جانب فى خيرنا وأسوء أعمالنا الرديئة .

(١) Condorcet : Esquisse d'Un Tableau Historique des Progr s de l'Esprit Humain, Paris 1933. pp. 2—1.

٢ ـ حياة الإنسان الأول :

Le premier état de civilisation où l'on ait observé l'espèce humaine, est celui d'une société peu nombreuse d'hommes subsistant de la chasse et de la pêche; ne connaissant que l'art grossier de fabriquer leurs armes et quelques ustensiles de ménage, de construire ou de creuser des logements; mais ayant déjà une langue pour se communiquer leurs besoins, et un petit nombre d'idées morales, où ils trouvaient des régles communes de conduite; vivant en familles; se conformant à des usages de gouveınegér.éraux qui leur tiennent licu de lois; ayant même une forme grossière ment. [1]

تكونت الحالة الأولى للمدنية ، التى لوحظ فيها الجنس البشرى ، من مجتمع صغير من الناس ، وكانوا يعيشون على القنص والصيد البحرى ، ولا يعرفون غير الفن البدائى فى صنع أسلحتهم وبعض الأدوات المنزلية وفى بناء أو حفر مساكنهم ، ونظراً لوجود لغة منذ فترة سابقة ؛ فقد كانوا ينقلون فيما بينهم حاجاتهم وعدداً قليلاً من الأفكار الأخلاقية التى كانوا يجدون فيها قواعد عامة للسلوك ؛ وكانوا يعيشون فى عائلات ، وقد كوّنوا عادات عامة كانت بالنسبة لهم قوانين ، وكان لديهم أيضاً شكل بدائى لحكومة .

---

(١) المرجع السابق – ص ٣ .

٣ ـ نشأة المجتمع الإنسانى :

Des observations sur les qualités physiques de l'homme qui peuvent favoriser la première formation de la soiété, et une analyse sommaire du développement de nos facultés intellectuelles et morales, doivent donc servir d'introduction au tableau de cete epoque.

Une société de famille paraît naturelle à l'homme. Formée d'abord par le besoin que les enfants ont de leurs parents, par la tendresse des méres , par celle des pères, quoique moins générale et moins vive, la longue durée de ce besoin des enfants à dû donner le temps de naître et de se développer à un sentiment propre à inspirer le desir de perpétuer cette réunion. Cette même durée a suffi pour en faire sentir les avantages.

يجب استخدام الملاحظات عن المميزات الجسمانية للإنسان التى تساعد على ظهور التكوين الأول للمجتمع ،ويجب أيضاً تحليل تطور قدراتنا العقلية والأخلاقية بصورة مختصرة للتمهيد لرسم صورة لهذا العصر ، ويبدو مجتمع العائلة طبيعياً للإنسان ، ويرجع تكوينه أولاً إلى حاجة الأطفال للوالدين وإلى حنان الأمهات والآباء ؛ رغم أن حنان الآباء أقل عمومية وحيوية من حنان الأمهات ، وقد أوجدت الفترة الطويلة التى تستغرقها تلك الحاجة التى يشعر بها الأبناء الفرصة الكافية لتولد ولنمو عاطفة صافية توحى بالرغبة فى دوام هذا التجمع ، وكانت هذه الفترة ذاتها كافية لإشعار الناس بمميزات هذه الجماعات .

Une famille placée sur un sol qui offrait une subsistance facile, a pu ensuite se multiplier et devenir une peuplade. Les peuplades qui auraient pour origine la réunion de plusieurs familles séparées, ont dû se former plus tard et plus rarement, puisque la réunion dépend alors et de motifs moins pressants et de la combinaison d'un plus grand nombre de circonstances[1] .

وقد تكونت المعاشر التى كانت فى الأصل تجمع مجموعة عائلات متفرقة بعد فترة طويلة وبصورة نادرة ، وذلك لأن هذا التجمع يعتمد فى وجوده على دوافع أقل استعجالاً (أى دوافع ثانوية يتم إشباعها بصورة أقل استعجالاً من إشباع الدوافع الأولية)(٢) وعلى ترابط عدد كبير من الظروف .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤ و ١٥ .
(٢) شروح إضافية .

٤ ــ استئناس الحيوان :

L'idée de conserver les animaux pris à la chasse dut se présenter aisément, lorsque la douceur de ces animaux en rendait la garde facile, que le terrain autour des habitations leur fournissait une nourriture abondante, que la famille avait du superflu, et qu'elle pouvait craindre d'être rédiute à la disette par la mauvais, succès d'une autre chasse, ou par l'intempérie des saisons.

Aprés avoir gardé ces aminaux comme une simple provision, l'on observa qu'ils pouvait se multiplier, et offrir par là une resource plus durable. Leur lait en présentait une nouvelle; et ces produits d'un troupeau qui, d'abord, n'etaient qu'un supplément à celui de la chasse , devinrent un moyen de subsistance plus assuré, plus abondant, moins pénible.

ظهرت فكرة الاحتفاظ بالحيوانات المستولى عليها من الصيد بسهولة ، وذلك لأن عدم شراسة هذه الحيوانات سهّل حراستها ، وقدمت لها الأرض المحيطة بالمساكن غذاء وفيراً ، وكذلك لأن العائلة لديها ما يفيض عن حاجتها وتخشى أن يصيبها القحط عندما يخونها الحظ فى صيد آخر أو عن عدم اعتدال الفصول ، وبعد أن كان السبب المباشر للاحتفاظ بالحيوانات هو تخزين الطعام ، لاحظوا أنها تستطيع أن تتكاثر وأن تقدم مورداً أكثر دواماً . وقدم لبن تلك الحيوانات مورداً جديداً ، وأصبح نسل الأغنام ، الذى كان فى أول الأمر ليس إلا مورداً مكملاً لموارد الصيد ، طعاماً مضموناً ومتوفراً بصورة أكثر (من الاعتماد على الصيد) ويحتاج إلى مشقة أقل .

La chasse cessa donc d'être le premier, et ensuite, d'être même comptée au nombre de ces moyens; elle ne fut plus conservée que comme un plaisir, comme une précaution nécessaire pour defendre contre les bêtes féroces les troupeaux qui, étant devenus plus nombreux, ne pouvaient plus trouver une nourriture suffisante autour des habitations[1]

وبذلك لم يعد الصيد فى المرتبة الأولى ، وبالتالى أصبح واحداً من ضمن هذه الوسائل (وسائل العيش) ، ولكنه بقى كهواية أو ضرورة للدفاع عن الأغنام ضد الحيوانات المفترسة ، وقد تكاثر عدد الأغنام، ولم تكن تجد ما يكفيها من الطعام فى الأراضى المحيطة للمساكن .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

٥ ـ اكتشاف الزراعة :

De même, dans les pays où des plantes, des graines, des friuts spontanément offerts par le sol, contriibuaient, avec les produits des troupeaux, à la nourriture de l'homme, on a dû observer aussi comment ces végétaux se multipliaient; et, dès lors, chercher à les rassembler dans les terrains les plus voisins des habitations; à les séparer des végétaux inutiles, pour que ce terrain leur appartînt tout entier; à les mettre à l'abri des animaux sauvages, des troupeaux, et même de la rapacité des autres hcmmes. Ces idées ont dû naître encore, et même plus tôt, dans les pays plus féconds, où ces prcductions spontanées de la terre suffisaient presque à la subsistance des hommes. Ils commencèrent donc à se livrer à l'agriculture. [1]

وأيضاً من الواجب ملاحظة كيفية تضاعف وكثرة الزراعات فى البلاد التى كانت تقدم تربتها النباتات والحبوب والفواكه بصورة تلقائية ، وكان يتكون غذاء الإنسان من تلك المزروعات بالإضافة إلى نسل الأغنام .

ومن ثم بدأ البحث فى تجميع تلك المزروعات فى المناطق المجاورة للمساكن، وفى فصل تلك المزروعات عن النباتات الضارة ، ولهذا امتلكوا تلك الأراضى بأكملها ، وبحثوا أيضاً عن طريقة لحماية تلك المزروعات من الحيوانات المتوحشة ومن الأغنام ، وكذلك من سطو الآخرين .

ويجب أن تكون هذه الأفكار قد ظهرت فى أول الأمر فى البلاد الأكثر خصوبة ، أو التى كانت منتجاتها التلقائية كافية لمعيشة الأفراد . وهكذا عرفوا الزراعة .

(١) المرجع السابق ص ٢٤ و ٢٥ .

٦ ــ اختراع الكتابة :

Les relations plus étendues, plus multipliées, plus compliquées, que les hommes forment alors entre eux, leur font éprouver la necessité d'avoir un moyen de communiquer leurs idées aux personnes absentes, de perpétuer la mémoire d'un fait avec plus de précision que par la tradition orale, de fixer les conditions d'une convention plus sûrement que par le souvenir des témoins, de constater, d'une manière moins sujette à des changements, ces coutumes respectées, auxquelles les membres d'une même societé sont convenus de soumettre leur conduite.

On sentit donc le besoin de l'ecriture, et elle fut inventée. Il paraît qu'elle était d'abord une véritable peinture, à laquelle succéda une peinture de convention, qui ne conserva que les traits caractéristiques

إن العلاقات التى يكونها الأفراد بين بعضهم والتى من صفاتها الامتداد والتكاثر والتعقد بصور قوية قد جعلت الناس يشعرون بالحاجة إلى وسيلة توصل أفكارهم إلى الأشخاص الغائبين وتخلد ذكرى أى حادث بصورة أدق من الرواية الشفهية وتحفظ شروط أى اتفاق بصورة أضمن من ذاكرة الشهود وتُثبت بطريقة غير قابلة للتغير هذه العادات المحترمة التى يخضع لها سلوك كل الأعضاء فى مجتمع معين .

شعر الناس فى ذلك الوقت بالحاجة إلى الكتابة واخترعت ، ويبدو أنها كانت فى أول الأمر رسماً مطابقاً للواقع ، ثم ظهرت رسوم متفق عليها لا تحتفظ إلا بالملامح المميزة للأشياء .

des objets. Ensiute, par une espèce de métaphore analogue à celle qui déjà s'etait inrodiute dans le langage, l' image d'un objet physique exprima des idées morales. L'origine de ces signes, comme celle des mots, dut s'oublier à la longue, et l'ecriture devint l'art d'attacher un signe conventionnel à chaque idée, à chaque mot, et par la suite, à chaque medification des idées et des mots.

Alors, on eut une langue écrite et une langue parlée, qu'il fallait également apprendre, entre lesquelles il fallait etablir une correspondance réciproque[1].

وبعد ذلك عبرت صورة الشيء الطبيعي عن الأفكار الأخلاقية عن طريق بعض المجاز مماثل لما حدث في اللغة ، وقدنسي أصل هذه العلامات سواء في اللغة (المنطوقة) أوالكلمات (المكتوبة) وأصبحت الكتابة الفن الذي يربط علامة متفقاً عليها بكل معنى وبكل كلمة ، وبعد ذلك بكل تغير يحدث في الأفكار والكلمات.

وبذلك وجدت لغة مكتوبة وأخرى منطوقة ؛ ووجب دراستهما وإنشاء صلة متبادلة بينهما .

(١) Condorcet : Esquisse pp. 5 et 6

٧ ــ الحضارة اليونانية القديمة :

A l'epoque ou nous sommes parvenus, ces mêmes peuples de l'Asie avaient inventé l'ecriture alphabétique, qu'ils avaient substituée aux-hiéroglyphes, ...

Cette découverte fut ensuite portée chez les Grecs, chez ce peuple qui a exercé sur les progrés de l'espèce humaine une influence si puissante et si heuruse, à qui le génie a ouvert toutes les routes de la vérité que la nature avait prépare , que le sort avait destine pour être le bienfaiteur et le guide de toutes les nations, de tous les âges : honneur qu jusqu'ici aucun autre peuple n'a partage. Un scul a pu depuis concevoir l'esperance de présider à une révolution nouvelle dans les destinées du genre humain. La nature, la combinaison des événements, semblent s'être accordées pour lui en réserver la gloire. Mais ne cherchons point à pénétrer ce qu'un avenir incertain nous cache encore.

فى العصر الذى وصلنا إليه اخترعت تلك الشعوب الآسيوية ذاتها الكتابة الأبجدية التى حلت محل الهيروغليفية ، . . .

انتقل هذا الاكتشاف بعد ذلك إلى اليونانيين ، إلى هذا الشعب الذى أثر فى تطور الجنس البشرى تأثيراً قوياً وطيباً ، والذى مكنته العبقرية من غزو جميع مسالك الحقيقة . وأعدته الطبيعة واختاره القدر ليكون منبع الخير وليكون الرائد لجميع الشعوب فى جميع العصور : شرف لم يشاركه فيه أى شعب آخر حتى الآن . واحد فقط استطاع منذ ذلك الوقت إحياء أمل قيادة ثورة جديدة فى مصائر الجنس البشرى (أعتقد أنه يقصد بذلك الشعب الفرنسى إبان الثورة الفرنسية)[1] . ويبدو أن الطبيعة وترابط الحوادث قد اتفقا على حفظ المجد له . ولكن فلنكف عن البحث فيما يخبئه لنا مستقبل غير مضمون .

---

(١) شروح إضافية .

La Grèce avait reçu des peuples de l'Orient leurs arts, une partie de leur connaissances, l'usage de l'écriture alphabétique, et leur système religieux; mais de communications etablies entre elle et ces peuples, par des Orientaux exilés, qui avaient cherché un asile dans la Grèce, par des Grecs qui voyagaient en Orient, transportèrent seules dans la Grèce les lumières et les erreurs de l'Asie et de l'Egypte. Cette heureuse circonstance, plus encore que la liberté politique,laissait à l'esprit humain chez les Grecs, une indépendance, garant assuré de la rapidité et de l'étendue de ses progrès. Cependant, leurs sages,leurs savants, qui prirent bientôt après le nom plus modeste de philosophes ou d'amis de la science de la sagesse, s'égarèrent dans l'immensité du plan trop vaste qu'ils avaient embrassé.

أخذ اليونانيون عن شعوب الشرق فنونهم وبعض معارفهم واستخدام الكتابة الأبجدية ومذهبهم الديني ، وقد نقلت الاتصالات التي تمت بينهم وبين هذه الشعوب مآثر وأخطاء آسيا ومصر إلى اليونان . وقد تمت تلك الاتصالات عن طريق المنفيين الشرقيين الذين وجدوا فى اليونان ملجأ لهم أو عن طريق اليونانيين الذين رحلوا إلى الشرق ، لقد ترك هذا الظرف السعيد ، بصورة أقوى مما ترتب على الحرية السياسية ، فى العقل الإنسانى عند اليونانيين استقلالاً ، مما جعل سرعة وانتشار مظاهر تقدم العقل أمراً مضموماً ، وفى ذلك العصر تاه حكماء اليونان وعلماؤها ، الذين تسموا بأكثر الأسماء تواضعاً وهو : الفلاسفة أو أصدقاء العلم وأصدقاء الحكمة ، فى ضخامة البحث الواسع الذى احتضنوه .

Ils voulurent pénétrer la nature de l'homme et celle des dieux, l'Origine du monde et celle du genre humain. Ils essayèrent de rediure la nature entière à un seul principe, et les phénomènes de l'univers à une loi unique. Ils cherchèrent à renfermer dans une seule règle de conduite, et tous les devoirs de la morale, et le secret du véritable bonheur. Ainsi, au lieu de découvrir des vérités, ils forgèrent des systèmes; ils négligèrent l'observation des faits, pour s'abandonner à leur imagination, et ne pouvant appuyer leurs opinions sur des preuves, ils essayèrent de les défendre par des subtilités[1].

أرادوا التعمق فى طبيعة الإنسان وطبيعة الآلهة وأصل العالم وأصل الجنس البشرى ، وحاولوا تلخيص الطبيعة كلها فى مبدأ واحد ، وظواهر العالم فى قانون واحد ، وقد بحثوا فى ضم كل الواجبات الأخلاقية وسر السعادة الحقيقية فى قاعدة واحدة للسلوك ، ومن ثم فإنهم بدلاً من اكتشاف الحقائق شكلوا نظماً ، وأهملوا ملاحظة الوقائع لكى يتركوا لخيالهم العنان . ونظراً لعدم تمكنهم من تدعيم آرائهم بالبراهين ؛ فقد حاولوا الدفاع عنها بفنونهم الخاصة .

(١) Condorcet : Esquisse d'Un Tableau Historique des Progres del'Ecprit Humain, Paris 1933 pp. 44, 45, 47, 48.

٨ — انتشار التخلف والاستبداد والتعصب في أوربا إبان العصور الوسطى :

Dans cette époque désastreuse,nous verrons l'esprit humain descendre rapidement de la hauteur où il s'était élevé, et l'ignorance traîner après elle, ici la férocité, ailleurs une cruauté raffinée, patrout la corruption et la perfidie. A peine quelques éclairs de talents, quelques traits de grandeur d'âme ou de bonté, peuvent-ils percer à travers cette nuit profonde . Des rêveries théologiques, des impostures superstitieuses, sont le seul génie des hommes:l'intolérance religieuse est leur seule morale; et l'Europe comprimée entre la tyrannie sacerdotale et le despotisme militaire, attend dans le sang dans les larmes le moment où de nouvelles lumières lui permettront de renaître à la liberté, à l' humanité et aux vertus.

فى هذا العصر الملىء بالكوارث سنشاهد الانهيار السريع للعقل الإنسانى من السمو الذى وصل إليه ، وسار الجهل فى ركابه ، هذه هى الوحشية ، وفى أماكن أخرى سادت قسوة ذات مظاهر خادعة وحل الفساد والخديعة فى كل مكان ، ويخترق هذا الظلام الدامس بصيص من شعاع المواهب وبعض ملامح عظمة الروح أو عظمة الخير . وكانت عبقرية الناس الوحيدة هى بعض أحلام تيولوجية (دينية) وادعاءات خرافية ، وكان مبدؤهم الوحيد هو التعصب الدينى . وكانت أوربا وهى غارقة فى الوحشية العقائدية والاستبداد العسكرى تنتظر وسط الدماء والأسلحة اللحظة التى يسمح لها فيها شعاع جديد أن تعيش ثانية فى حرية وإنسانية وفضيلة .

Le ciel ne leur offrait que des groupes d'étoiles semés dans ces déserts immenses, que des planets qui y décrivaient des mouvements plus ou moins compliqués . et de phénomènes purement physiques, résultant des positions de ces astres divers . Ils imposaient des noms à ces groupes d'étoiles et à ces planètes, aux cercles mobiles ou fixes imaginés pour en représenter les positions et la marche apparante, pour en expliquer les phénomènes. Mais leur langage, leurs monuments, en exprimant pour eux ces opinions métaphysiques, ces vérités naturelles, offraient aux yeux du peuple le système de la plus extravagante mythologie, devenaient pour lui le fondement des croyances les plus absurdes, des cultes les plus insensés, de pratiques les plus honteuses ou les plus barbares [1] .

لم تكن تقدم السماء لهم (لرجال الدين الأوربيين إبان العصور الوسطى) إلا مجموعة من النجوم المزروعة فى هذه الصحارى الواسعة وكواكب تدور فى تلك الصحارى فى حركات أكثر أو أقل تعقيداً وظواهر طبيعية تماماً ناتجة عن أوضاع تلك الكواكب المختلفة ، وكانوا يطلقون الأسماء على هذه المجموعات من النجوم وعلى هذه الكواكب وعلى هذه الدوائر المتحركة التى كانوا يتوهمون أنها ثابتة ، وذلك حتى يستطيعوا تحديد مراكزها وتتبع مسيراتها الظاهرية . وبذلك كانوا يفسرون الظواهر . ولكن لغاتهم وآثارهم المستخدمة فى التعبير عن تلك الآراء الميتافيزيقية وعن الحقائق الطبيعية قد قدمت لأعين الناس نظاماً أسطوريـاً مبالغاً فيه ، وأصبحت تلك اللغات والآثار بالنسبة للشعب أساساً للمعتقدات الغريبة وللمذاهب غير المعقولة وللطقوس التى وصلت إلى أقصى درجات الفساد والوحشية .

(١) المرجع السابق ص ٤٢ و ٤٣ و ٩٠ .

٩ ــ ظهور الإسلام وتقدم النهضة العربية وفضل العرب على الغربيين :

Aux extrémités de l'Asie, et sur les confins de l'Afrique, existait un peuple qui, par sa position et son courage, avit échappé aux conquêtes des Perses, d'Alexandre et des Romains. De ces nombreuses tribus, les unes devaient leur subsistance à l'agriculture; les autres avaient conservé la vie pastorale: toutes se livraient au commerce, et quelques-unes au brigandage. Réunies par une même origine, par un même langage, par quelques habitudes religieuse, elles formaient une grande nation, dont cependant aucun lien politique n'unisait les portions diverses. Tout à coup s'éleva au milieu d'elles un homme doué d'un ardent enthousiasme et d'une politique profonde, né avec les talents d'un poète et ceux d'un guerrier. Il conçoit le hardi projet de réunir en un seul corps les tribus arabes, et il a le courage de l'exécuter.

كان يعيش على حدود آسيا وأفريقيا شعب استطاع بشجاعته وموقعه أن ينجو من غزوات الفرس والإسكندر والرومان . وكان يعيش بعض هذه القبائل المتعددة على الزراعة واحتفظ البعض الآخر بالرعى ، وقد مارست كل تلك القبائل التجارة وقلة منهم اللصوصية . وكان يربط هذه القبائل أصل واحد ولغة واحدة و بعض العادات الدينية ، وتكونت بتلك الروابط أمة كبيرة .

ورغم ذلك لم يكن هناك أى رابطة سياسية توحد الأجزاء المتفرقة . وفجأة ظهر بين هذه القبائل رجل ذو حماس شديد وسياسة عميقة ، وُلد وعنده مواهب الشاعر وشجاعة المحارب ، وبدأ فى تنفيذ مشروع جرىء يتمثل فى جمع هذه القبائل العربية فى جسم واحد ، وكانت لديه الشجاعة لتنفيذه .

Pour donner un chef à une nation jusqu' alors indomptée, il commence par èlever sur les débris de l'ancien culte une religion plus épurée. Législateur, prophète, pontife, juge, général d'armée, tous les moyens de subjuguer les hommes sont entre ses mains, et il sait les employer avec adresse, mais avec grandeur.

Après avoir joui vingt ans d'un pouvoir sans bornes, dont il n'existe point d'autre exemple, il déclare que,s'il a commis une injustice,il est prêt à la réparer.Tout se tait: une seule femme ose réclamer une petite somme de monnaie. Il meurt, et l'enthousiasme qu'il a communiqué à son peuple va changer la face des trois parties du monde.

Les mœurs des Arabes avaient de l'élévation et de la douceur; ils aimaient et cultivaient la poésie;et lorsqu'ils régnèrent sur les plus belles contrées de l'Asié, lorsque le temps eut calmé la fièvre du fanatisme religieux, le gôut des lettres et des sciences vint se mêler à leur zèle pour

كى يستطيع أن يكون حاكماً لأمة لم تخضع لأحد من قبل ، بدأ فى التبشير بديانة سامية على أنقاض المذاهب القديمة ، وكان مشرعاً ونبياً وقاضياً وقائداً ، وكانت بين يديه كل الوسائل التى تخضع الناس وقد استخدمها بمهارة وبكل نبل . وبعد أن تمتع لمدة عشرين سنة بسلطات لا حد ولا مثيل لها ، أعلن أنه إذا كان قد اقترف ظلماً فإنه على استعداد لإصلاحه ، صمت الكل ، وتجرأت امرأة واحدة فقط على المطالبة بمبلغ صغير من المال ، ومات وقد ترك لشعبه حماساً أدى إلى تغيير ثلاثة أجزاء من العالم .

كانت عادات العرب رفيعة وحلوة ، وكانوا يحبون الشعر وينظمونه ، وعندما ملكوا أجمل بقاع آسيا وبدأ الزمن يلطف من حدة التعصب الدينى ، أخذ تذوق الآداب والعلوم يذوب فى نشاطهم الخاص بالتبشير للعقيدة ، وهدأ هذا التذوق من حماستهم للمعارك .

la propagation de la foi, et tempérer leur ardeur pour les conquêtes.

Ils étudièrent Aristote, dont ils traduisirent les ouvrages. Ils cultiverent l'astronomie, l'optique, toutes les parties de la médecine, et enrichirent ces sciences de quelques vérités nouvelles. On leur doit d'avoir généralisé l'usage de l'algèbre, borné chez les Grecs a une seule classe de questions. Si la recherche chimérique du secret de transformer les métaux, et d'un breuvage d'immortalité, souilla leurs travaux dans la chimie, il furent les restaurateurs, ou plutot les inventeurs de cette science, jusqu'alors confondue avec la pharmacie ou avec l'étude des procédés des arts. C'est chez eux que la chimie parait, pour la première fois, comme analyse des corps dont elle fait connaître les éléments, comme the rie de leurs combianisons, et des lois auxquelles ces combinaisons sont assujetties.

Les sciences y étaient libres, et les Arabes durent à cette liberté d'avoir pu ressusciter quelques étincelles du génie des Grecs; mais ils étaient soumis à un despotisme consacré par la religion.

لقد درسوا أرسطو وترجموا أعماله ووضعوا أسس علم الفلك، وعلم الطبيعة وكل فروع الطب ، وغذوا هذه العلوم ببعض الحقائق الجديدة . وكان لهم الفضل فى تعميم استخدام الجبر الذى كان قاصراً عند اليونانيين على نوع واحد من الأسئلة . ورغم أن البحث الكيميائى عن سر تحويل المعادن وسر مشروب الخلود قد شوه أعمالهم فى الكيمياء فقد اكتشفوا هذا العلم الذى كان حتى ذلك الوقت مختلطاً بالصيدلة أو بدراسة وسائل الفنون . لقد ظهرت الكيمياء لأول مرة عند العرب ، وقد عرّفوها بأنها تحليل الأجسام لتحديد عناصرها . وبأنها نظرية تجميع تلك العناصر ونظرية القوانين التى تخضع لهاهذه التجمعات . كانت تعيش العلوم عندالعرب فى حرية ، وقد استمر العرب فى هذه الحرية وقتاً كافياً لإحياء بعض إشعاعات عبقرية اليونانيين ، ولكنهم ما لبثوا أن خضعوا لاستبداد رجال الدين .

Aussi , cette lumière ne brilla-t-elle quelques moments que pour faire place aux plus épaisses ténèbres; et ces travaux des Arabes auraient été perdu pour le genre humain, s'ils n'avaient pas servi à préparer cette restauration plus durable, dont l'Occident va nous offrir le tableau. Enfin l'enthousiasme religieux entraîna les Occidentaux à la conquête des lieux consacrés,à ce qu'on disait,par la mort et par les miracles du Christ; et en même temps que cette fureur était favorable à la liberté, par l'affaiblissement et l'appauvrissement des seigneurs,elle étendait les relations des peuples européens avec les Arabes; liaisons que déjà leur mélange avec les chréstiens d'Espagne avait formées, que le commerce de Pise, de Gênes, de Venise, avait cimentées. On apprit la langue des Arabes; on lut leurs ouvrages, on s'instruisit d'une partie de leurs d couvertes; et si l'on ne s'éleva point au-dessus du point où ils avaient laissé les sciences, on eut du moins l'ambition de les égaler. [1]

وهكذا لم يلبث هذا النور أن استبدل بأحلاك الظلمات ، وكان مآل هذه الأعمال الضياع على الجنس البشرى كله إذ لم يُستخدم ما تبقى منها بطريقة أكثر دواماً عن طريق الغرب الذى حمل الأمانة .

وأخيراً دفع الحماس الدينى الغربيين إلى غزو الأماكن الخاصة بموت وبمعجزات المسيح (الحروب الصليبية) ، وفى نفس الوقت الذى كان فيه الحماس ملائماً للحرية بسبب ضعف وفقر الأمراء ، كان هذا الحماس يوسع الصلات بين الشعوب الأوربية والعرب ، وقد تم الاختلاط من قبل بين الأسبان المسيحيين والعرب عن طريق تجارة پيز وجنوة وڤينيسيا ، فتعلم الغربيون لغة العرب وقرأوا إنتاجهم وتعرفوا على جزء من اكتشافاتهم ، ورغم أنهم لم يرتفعوا إلى الدرجة التى وصل إليها العرب فى العلوم فقد كانوا على الأقل يأملون فى المساواة بهم .

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ .

١٠ ــ الأمانى التى ستتحقق فى المستقبل :

Nos espérance sur l'état à venir de l'espèce humaine peuvent se réduire à ces trois points importants:la destruction de l'inégalité entre les nations; les progrés de l'égalité dans un même peuple; enfin, le perfectionnement réel de l'homme.

Parcourez l'histoire de nos entreprises, de nos établissements en Afrique ou en Asie;vous verrez nos monoples de commerce, nos trahisons, notre mépris sanguinaire pour les hommes d'un autre couleur ou d'une autre croyance;l'insolence de nos usurpations;l'extravagant prosélytisme ou les intrigues de nos prêtres. détruire ce sentiment de respect et de bienveillance que la supériorité de nos lumières et les avantages de notre commerce avait d'abord obtenu.

تتلخص أمنياتنا لحالة الجنس البشرى المستقبلة فى نقاط ثلاث : هدم التفرقة بين الشعوب ، وتقدم المساواة فى الشعب الواحد، وأخيراً الكمال الحقيقى للإنسان .

وإذا أعدتم النظر فى تاريخ مشروعاتنا وقواعدنا فى أفريقيا وآسيا فستجدون احتكاراتنا التجارية وخياناتنا واحتقارنا الدامى للأشخاص ذوى اللون المختلف والديانة المختلفة . إن وقاحة اغتصاباتنا ووسائلنا الغريبة لجذب الناس لمذهب معين ودسائس قسُسّنا هى هدم الشعور بالاحترام والكرم، وقد حصلنا عليها من قبل عن طريق سمو ثقافتنا ومميزات تجارتنا .

١١ ـ التنبؤ بالمستقبل عن طريق الكشف عن القوانين :

Si l'homme peut prédire, avec une assurance presque entière les phénomènes dont il connaît les lois; si, lors même qu'elles lui sont inconnues, il peut, d'après l'experience du passé, prevoir, avec une grande probabilité, les événements de l'avenir;pourquoi regarderait-on comme une entreprise chimérique,celle de tracer, avec quelque vraisemblance, le tableau des destinées futures de l'espèce humaine,d'après les résultats de son histoire? Le seul fondement de croyance dans les sciences naturelles, est cette idée, que les lois générales,connues ou ignoréees,qui règlent les phénomènes de l'univers, sont nécessaires et constantes; et par quelle raison ce principe serait-il moins vrai pour le développement des facultés intellectuelles et morales de l'homme, que pour les autres operations de la nature ? [1].

إذا كان الإنسان يستطيع التنبؤ ، بتأكيد كامل تقريباً ، بالأحداث التى يعرف قوانينها ، وإذا كان يستطيع ــ فى حالة عدم معرفة هذه القوانين ــ التنبؤ بدرجة كبيرة من الاحتمال بأحداث المستقبل عن طريق الخبرة وتجارب الماضى ، فلماذا تعتبر عملية تحديد مصائر الناس والتنبؤ بها بصورة شبه صادقة عملية خيالية ، رغم اعتمادها على نتائج تاريخية ؟ إن الأساس الوحيد للصدق فى العلوم الطبيعية هو هذه الفكرة : إن القوانين العامة ــ سواء كانت معروفة أو مجهولة ــ هى التى تنظم ظواهر العالم ، وهى قوانين ضرورية ودائمة . فلماذا نعتبر هذا المبدأ أقل صدقاً بالنسبة لنمو القدرات العقلية والأخلاقية عند الإنسان ، وأكثر تأكيداً وصدقاً بالنسبة لعمليات الطبيعة الأخرى ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٦ .

Mais l'instant approche sans doute où, cessant de ne leur montrer que des corrupteurs et des tyrans, nous deviendrons pour eux des instruments utils, ou de généreux libérateurs.

En fin,ces changements eux-mêmes étant la suite nécessaire du progrès dans la connaissance des vérités de détail, et la cause qui amène le besoin de ressource novelles produisant en même temps les moyens de les obtenir, il résulte que la masse réelle des vérités que forme le systeme des scien ces d'observation, d'expérience ou de calcul, peut augmenter sans cesse; et cepandant, toutes les parties de ce même système ne sauraient se perfectionner sans cesse, en supposant aux facultés de l'homme la même force, la même activité, la même étendue. En appliquant ces réflexions générales aux différentes sciences, nous donnerons, pour chacune d'elles, des examples de ces perfectionnements successifs, qui ne laisseront aucun doute sur la certitude de ceux que nous devons attendre. [1]

ولكن اللحظة تقترب ، بدون شك، التى فيها سنكف عن تقديم المفسدين والسفاحين لهم ، وسنصبح بالنسبة لهم أدوات نافعة أو أحرارًا كرماء .

وأخيراً بما أن هذه التغيرات ذاتها كانت نتيجة ضرورية للتقدم فى معرفة الحقائق بالتفصيل ، وكانت سببا فى ظهور الحاجة إلى موارد جديدة وفى إنتاج الوسائل الموصلة إليها فى نفس الوقت ، فقد كانت النتيجة أن الكمية الضخمة من الحقائق ، التى تكونت عن طريق نظام العلوم والملاحظة والتجارب والحساب ، تستطيع أن تتضاعف بدون توقف ، ومع ذلك فإن بعض فروع هذا النظام لن تستطيع التقدم بدون توقف ، إذ أن قدرات الإنسان لها قوة واحدة محدودة ونشاط وامتداد محدودان . إذا طبقنا هذه الأفكار على الأنواع المختلفة من العلوم فسنعطى لكل منها أمثلة من هذا الكمال المتتابع الذى لايثير أى شك فى درجة التأكد التى يجب علينا انتظارها .

« تم بحمد الله »

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٦ و ٢١٩ .

المراجع

أولاً — المراجع العربية :

١ — د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، القاهرة ١٩٥٣ .

٢ — د . عاطف أمين وصفى : نقد فلسفة التاريخ عند كوندرسيه من وجهة علم الاجتماع ، (رسالة ماجستير) آداب القاهرة ١٩٥٨ .

٣ — د . عاطف أمين وصفى : المجتمع العربى —دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٥ .

٤ — محمد عبد المنعم خفاجى : الإسلام وحقوق الإنسان ، القاهرة ١٩٥٠ .

٥ — محمد على علوبة : الإسلام والديموقراطية ، القاهرة ١٩٥٠ .

ثانياً — المراجع الأجنبية :

1 — Brehier : Histoire de la Philosophie, Paris 1937.

2 — Condorcet : معظم مؤلفاته وخاصة الكتاب الآتى :

Esquisse d'un Tableau Historique des Progres de l' Esprit Humain, Paris 1933,

3 — Durkheim : Les Règles de la Methode Sociologique, Paris 1938.

4 — Ellwood : A History of Sacial Philosophy, New York 1944.

5. Cahen : Condorcet et La Pevolution Française, Paris, 1908.

6. Nichelson : Literary History of Arabes, London 1948. .

7. Prior : L'introduction : Condorcet, Esquisse d'un Tableau Historique des Progrés de l'Esprit Humain, Paris 1933.

8. Severac : Condorcet, Paris 1912.

9. Vico : La Science Nouvelle, Paris, 1927.

10. Walsh : Introduction to Philosophy of History, London, 1951.

الفهرس

هـذه المجموعة

النبوغ مثل العلم لا وطن له وإنما هو موهبة لدنية أولاً وكسبية ثانيًـا يمتاز بهـا فريق من النـاس وينسحب أثرهـا وفخارها على البلد أو العصر أو القارة التى ينتمون إليها، وما أجدر أن تكون آثار أولئك النوابغ ومجالى عـظمتهم فى الفن والأدب والعلم مثالاً يحتذى وأثرًا يؤثر.

إن مقومات الفكر فى الشرق العربى كافية لخلق العالم والأديب فيـه ولكنها تؤتى أعـظم أكلها إذا امتـزجت فيها مقومات الفكر الغربى وهذا ما تتوخاه هذه المجموعة.

إنها معرض فكرى حافل سوف يلتقى القراء فيه بجبابرة الفكر من رجال الغرب قديمهم وحديثهم أولئك الذين كانوا للعالم مصابيح هدى فأناروا له سبيل العلم والمعرفة.

يمتاز كل كتاب من هـذه المجموعة بترجمة وافية لحيـاة العبقرى الذى أفرد له ذلك الكتاب، وبدراسة مفصلة عن أدبه وعلمه ومذهبه الفكرى، كما يمتاز بصفوة مختارة من آثاره الموضحة لمنهج البحث منقولة إلى اللغة العربية ومنشورة إلى جانب الأصل الأفرنجى المنقولة عنه.